مكة المكرمة والمدينة المنورة

للحجاز -كما كانت تسمى قبل تأسيس المملكة العربية السعودية- أهمية خاصة ومكانة عزيزة عند المسلمين في جميع أرجاء العالم لاحتضانها المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة. فمكة المكرمة، المدينة المقدسة الأولى، التي ولد فيها الرسول الكريم محمد بن عبدالله ﷺ هي مهد الرسالة، ومهبط الوحي، ومنطلق الدعوة الإسلامية التي انتشرت إلى بقية أنحاء العالم، إضافة إلى أنها تضم في قلبها الحرم المكي الشريف، وفيه الكعبة المشرفة (بيت الله العتيق). قبلة المسلمين عند كل صلاة، كما يضم الحرم أيضاً مقام إبراهيم وحجر إسماعيل والصفا والمروة وبئر زمزم. وغير بعيد عن مكة المكرمة التي تعد مقر الحج والعمرة، تقع المشاعر الإسلامية المقدسة وهي عرفات ومزدلفة والمشعر والجمرات وغير ذلك من الأمكنة المهمة كجبل أبي قبيس، وجبل النور وفيه غار حراء الذي كان يتعبد فيه الرسول الكريم قبل نزول الوحي.

أما المدينة المقدسة الثانية عند المسلمين وهي المدينة المنورة، فتضم في رحابها المسجد النبوي الشريف، وهي مثوى رسول الله ﷺ، إضافة إلى ذلك فقد كانت المدينة المنورة في عهد الرسول الكريم وخلفائه الراشدين موئل العلم ومقر إدارة دولة الإسلام. وفي بداية الدولة الأموية، أصبحت دمشق العاصمة السياسية للدولة الإسلامية بدلاً من المدينة المنورة.

وإلى جانب أهمية هذه المنطقة الدينية فإن لها أهمية ثقافية وحضارية في التاريخ، فأراضيها حافلة بمواقع الأحداث والمعارك التي كان لها أثر كبير على مسار التاريخ في الجزيرة العربية بل وفي العالم كله، فضلاً عن ثرائها قديماً وحديثاً

بشواهد مهمة من العمارة التقليدية الباقية حتى الآن، وخصوصاً في بعض مدنها الأخرى كجدة والطائف وغيرهما.

وينتمي سكان منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى ثقافات وحضارات متنوعة بسبب الهجرة الدائمة من مختلف بقاع العالم الإسلامي إلى البقاع المقدسة، وبسبب أسفار الحجازيين إلى البلاد الإسلامية والخارجية من قبل وبعد، إما للتجارة وتنمية علاقاتهم بالحجاج، أو للعلاقات السياسية والاجتماعية مع تلك البلاد. ولا ريب أن امتزاج مختلف العادات والحضارات جعل سكان المنطقة أكثر انفتاحاً على العالم الخارجي وأكثر تقبلاً للأفكار الجديدة. كما أن قرب الحجاز من مصر وبلاد الشام ذات الاقتصاد والنشاط الثقافي الأكثر تطوراً في ذلك الوقت كان له أثر إيجابي في الفنون والآداب والعمارة في الحجاز.

ويمكن تقسيم منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة خمسة أجزاء رئيسية يختلف كل جزء منها عن الجزء الآخر من الناحية الطبيعية والعمرانية وهي: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف، وينبع، ورابغ.

فمكة المكرمة مبنية بين الجبال وعند ملتقى أودية وشعاب، ويتسم جوها بالحر الشديد والجفاف. ويعتمد اقتصاد مكة اعتماداً كلياً على التجارة المتعلقة بالحج.

والمدينة المنورة واحة زراعية خصبة اشتهرت بإنتاجها الغزير من التمور. وفي المدينة يوجد المسجد النبوي الذي يؤمه جزء كبير من الحجاج قبل أدائهم لفريضة الحج أو العمرة أو بعدهما. والمدينة ذات اقتصاد زراعي قوي، إضافة إلى تجارة الحج. وهي منعزلة بعض الانعزال بسبب المسافة التي تبعدها عن مكة وجدة والطائف. ومناخ المدينة أقل حرارة من مناخ مكة وأقل رطوبة من جدة، وهو مناخ قاري شبيه بمناخ الرياض. وحول المدينة جبال وحرات (صخور بركانية) ووديان طينية توفر أنواعاً من مواد البناء.

أما جدة فإنها تبعد عن مكة حوالي ٧٠كم وتقع على ساحل البحر الأحمر، وهي الميناء الرئيسي الذي يقدم عن طريقه حجاج بيت الله الحرام، وهي أيضاً أهم ميناء تجاري في المملكة. ويغلب على جدة النشاط التجاري، وأراضيها منبسطة ورملية وتطغى الرطوبة والحرارة على جوها معظم أيام السنة إلا أنها ذات جوّ دافىء شتاء.

وأما الطائف فإنها تقع على علو ٢٠٠٠م عن مستوى سطح البحر، وتربطها بمكة وجدة طرق جبلية متعرجة

شاقة، أصبحت الآن سهلة بعد شق الطرق وتوسعتها ورصفها. مناخها ألطف كثيراً من جو مكة وجدة، وهي تعد المصيف الرئيسي في المملكة ويلجأ إليها المقتدرون من سكان مكة وجدة أثناء فصل الصيف، وكانت مصيفاً للمكيين حتى في جاهليتهم وكانت لهم فيها حدائق وبساتين. والطائف أصغر كثيراً من مكة أو جدة، وكانت الزراعة إلى عهد قريب عصب الاقتصاد فيها. ويتوقف بالطائف الحجاج القادمون بطريق البر من وسط الجزيرة في طريقهم إلى مكة.

أما الشريط الساحلي الشمالي للبحر الأحمر فلا توجد به مدن تذكر وإنما موانئ صغيرة أهمها ميناءا ينبع ورابغ اللذان كانا يستخدمان في الماضي لاستقبال الحجيج القادمين بالبحر من مصر، مع أن أهميتهما أقل بكثير من أهمية ميناء جدة. وشهدت ينبع في العشرين سنة الماضية طفرة صناعية إذ اختيرت لتكون مركزاً للصناعات البتروكيماوية على ساحل البحر الأحمر، ومناخها أقل حرارة من جدة وألطف بصورة عامة.

وبسبب هذا التنوع الكبير الموجود في منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة من حيث المناخ والبيئة الطبيعية والنشاطات التجارية والدينية وكثافة الاتصال بالعالم الخارجي، نجد تنوعاً كبيراً في الطرز المعمارية، كما نجد أيضاً تبايناً في التطور العمراني والعناصر العمرانية الشائعة في كل جزء. لذا رأينا أنه من الأفضل عند الحديث عن العمارة التقليدية أن نتطرق أولاً إلى خواص العمارة التقليدية في كل جزء، وبعد ذلك نتحدث بشكل عام عن العمارة التقليدية، مشيرين إلى نقاط التشابه والاختلاف بين المناطق. وقد رتب هذا الجزء على النحو التالي: مكة المكرمة، المدينة المنورة، جدة، الطائف، ينبع. بعد ذلك نتحدث عن أنماط البيت التقليدي الحجازي، وطرق البناء في الحجاز.

مكة المكرمة

تقع مكة في موقع متوسط بين شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية، وكانت تشغل مكاناً حيوياً على طريق القوافل.

وتحيط مدينة مكة القديمة بالكعبة، وتقع أعلى القمم الجبلية المحيطة بالحرم إلى الشرق من مكة، في جبل الطارقي (٩٨٩م) وجبل أبي قبيس (٨٧٠م)، وجبل ثبير (٨٦٩م)، وجبل ثور (٧٥٥م) ويقع إلى الجنوب، وجبل النور الذي به غار حراء إلى الشمال (٦٣٤م).

ولما كانت هذه المرتفعات ذات صخور جرانيتية غير مسامية، فإنها لا تكوّن مستودعات للمياه الجوفية، ولذلك فإن مستودعات المياه ليست إلا في مناطق الصدوع والشقوق التي تتراكم فيها الترسبات. ولهذا تقل المياه في مكة، وأهم مصادرها بئر زمزم التي تمتاز باستمرار مائها. وتتلقى حافة جبال الحجاز شرقي مكة كميات من الأمطار تغذي عين زبيدة التي كانت تخدم احتياجات مكة المائية في عصور الإسلام الأولى، حتى اعتمد بعد ذلك على مياه وادي فاطمة ومياه البحر الأحمر المعالجة.

أثَّرت البيئة الطبيعية، من تكوينات جيولوجية وتضاريس ومناخ، في التطور العمراني لمنطقة الحرم المكي. وتكوينات مكة هي كتل جرانيتية جبلية سوداء تنتمي إلى الدرع العربي المكون من صخور القاعدة الأركية القديمة، وتوجد بعض الأودية الانكسارية والصدوع وتغطيها ترسّبات حصوية ورملية وطينية جاءت وليدة تأثير عوامل التعرية في الصخور الجرانيتية التي تؤدي إلى تقشرها وظهور الحصى.

أما عن النبات الطبيعي، فإن مكة كما وصفها القرآن الكريم تقع في واد غير ذي زرع. والأشجار المحلية فيها هي النِّيم والسدر، وثمّ أشجار السلم والسمر فيما جاورها من أودية، وتنمو أشجار السدر وترتفع إلى أكثر من ١٥م، ويؤخذ منها الخشب القوي، والثمار، ويستظل بظلالها أيضاً. أما الطلح فنادراً ما يصل طوله إلى ٧م، وتتخذ هذه الأشجار علفاً للحيوانات الرعوية وتؤخذ منها كذلك أخشاب الوقود. أما شجر الدوم فيوجد في تهامة ويصل ارتفاعه إلى ١٠م، وتستعمل أخشابه في البناء.

ويبدو من أوصاف متفرقة أن مكة المكرمة كانت زمن الهجرة نواة صغيرة من المنازل. وكانت هذه منازل أسر التجار المرموقين مثل بني هاشم وبني تيم وبني عبد شمس (السباعي ١٤٠٤: ٣٠-٣٤)، كما أن بعض أسر التجار وآخرين من الذين يعملون مباشرة في خدمة الحجاج كانوا يقطنون أيضاً بالقرب من الكعبة المشرفة (علي ١٩٦٨، ج٤: ٤٧).

وهذه المنازل ربما بلغت مائة منزل. وقد يكون خلفها منشآت مؤقتة تشتمل على الخيام وأكواخ من الطين الجاف والكهوف. وربما كانت هذه المنشآت البسيطة يقيمها الحرفيون والعمال مثل أولئك الذين يخدمون الحجاج من أمثال الحلاقين والخياطين والسقائين والجزارين والطباخين. وبالطبع كان لأغنياء التجار

أتباع وخدم يسكنون في منازل أسيادهم. ولذلك فقد كانت هذه الأكواخ المبعثرة على حواف المنازل قليلة العدد (علي ١٩٦٨، ج٤: ٢٦-٢٧).

وخارج مكة كان الرعاة الذين كانوا يرعون ماشية أهالي مكة. لقد كانت للأسر الغنية منازل، وكانت لهم قطعان كبيرة من الإبل والأغنام، عهد بها إلى رعاة متخصصين يتنقلون بها من مرعى إلى آخر في الأودية المجاورة لمكة المكرمة. ولا يعرف امتداد هذه المراعي، ولكنها كانت تغطي مناطق كبيرة، إذ يذكر أن عدد الجمال التي ترعى فيها تبلغ عشرات الآلاف (علي ١٩٦٨، ج٤: ٢٦-٢٧).

وبذلك كان الشكل الحضري لمكة المكرمة يتكوَّن من الكعبة المشرفة، التي يحيط بها حزام صغير من المنازل والدور، وعدد ضئيل من الأكواخ المؤقتة المتناثرة خلفها. أما في الأودية المجاورة فهناك رعاة قطعان الإبل والأغنام التابعة لتجار مكة المكرمة، وكذلك للبدو أنفسهم.

ولا يبدو أن هناك أية أسواق مجتمعة أو حمامات أو أي خدمات عامة في ذلك الوقت، ومن المرجح أن الأنشطة المتخصصة لم تتطور، فالأنشطة تجري داخل بيوت الناس أو في الأماكن العامة مثل تلك التي حول الكعبة المشرفة.

ولقد تغيَّرت الأحوال في مكة المكرمة جذرياً بعد الإسلام، ففي الجاهلية كان يؤدي الحج عدد من الذين يسافرون إلى الأسواق وكان هذا العدد صغيراً، على الرغم من أنهم كانوا يأتون من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية. وفي وقت لاحق عندما فُرض الحج على المسلمين زادت أعداد الحجيج التي تفد إليها وتسكن فيها، وكذلك كان الناس قبل الإسلام يأتون لزيارات عابرة، أما بعد ذلك فكان الحجاج يأتون للإقامة في مكة المكرمة.

تغيرت وظيفة التجارة في مكة، فمع توسع الحكم الإسلامي أصبحت القوافل تسير عبر مناطق أكثر أمناً وسلامة.

إن توسع أعمال ومهام دولة الخلافة الإسلامية تطلب أعداداً متزايدة من الإداريين والأنصار، وخاصة القواد من قريش البطاح. ونتج عن ذلك تدفق الأشخاص لشغل وظائف في أماكن أخرى وهذا أدى أيضاً إلى انخفاض كلي في عدد سكان مكة أثناء فترة الخلفاء الراشدين.

أما السكان الذين صُنِّفوا سابقاً بقريش الظواهر وهم ممن يعيشون خارج مكة الحضرية، فربما هاجروا أيضاً من مكة وذهبوا للمدينة وبلاد أخرى تحت حكم المسلمين. وهؤلاء ربما تحولوا من تجار

رحالة إلى مجاهدين، وذهبوا إلى أماكن بعيدة. وبعد انتشار الإسلام ترك سكان المنطقة المحيطة بمكة المكرمة وهم رعاة الإبل والأغنام منطقتهم وحرفتهم وانضموا للجيش لأنهم عُرِفوا بالشجاعة.

وتبعاً لذلك واجهت مكة المكرمة في الفترة الأولى للإسلام قوى متناقضة، فقد ازداد حجيجها وضعفت الأحوال التجارية وانخفض عدد السكان. ولذلك تجمع السكان الباقون حول الكعبة ليكونوا في حالة ارتباط بالحجيج. وهذا التجمع وازدياد عدد الحجاج أدى تدريجياً إلى امتلاء المطاف حول الكعبة. ولذلك فقد وُسّع المطاف أيام عمر ومن بعده عثمان رضي الله عنهما بهدم المنازل والدور المجاورة.

وكان امتداد المنطقة الحضرية لمكة المكرمة في نهاية حكم الخلفاء الراشدين قد بدأ من المعلاة في الشمال إلى الهجلة في الجنوب، ومن أجياد في الشرق إلى الشبيكة في الغرب.

ويبدو أن مكة شهدت عديداً من التغيرات في النسيج الحضري في الأربعين سنة الأولى بعد الهجرة. فالاستيطان حول الكعبة أصبح أكثر تنظيماً، كما أن الفراغات بين المنازل بدأت تمتلىء. وقد بقي نظام الإنشاء على طابق واحد، وكان مستوى الإنشاء بسيطاً جداً. وقد أدى تزاحم المنازل والدور حول الكعبة إلى أن يزيل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ﷺ كثيراً من هذه المنازل والدور.

وإضافة إلى توسعتي المطاف اللتين أمر بهما عمر وعثمان ﷺ فقد أمر أيضاً ببناء جدار لتحديد معالم المطاف. وفي بعض المواقع اتصلت جدران المنازل والدور بهذا الجدار، وفي مناطق أخرى كانت منفصلة (الأزرقي، ١٩٧٨، ج٢: ٧٩).

وهناك دليل آخر حول الشكل الحضري لمكة المكرمة وهو أن شيبة بن عثمان أثناء حكم معاوية كان يهدم المنازل التي كان ارتفاعها أكثر من ارتفاع الكعبة (الأزرقي ١٩٧٨، ج١: ٢٨٠).

وهذا الإجراء دليل على أن المنازل في ذلك الوقت بدأت ترتفع فوق مستوى ارتفاع الكعبة التي كان ارتفاعها في ذلك الوقت ١٨ ذراعاً (٩م تقريباً). ومن المرجح أن يكون عدد سكان مكة المكرمة قد ازداد أثناء فترة حكم معاوية وكثروا حول الكعبة، لأن المباني بدأت ترتفع وأصبحت ذات طابقين أو ثلاثة طوابق، وأعاد ابن الزبير بناء الكعبة سنة ٦٤هـ (٦٨٣م) ووسّع المكان قليلاً.

وبالإضافة إلى ذلك فقد ازداد ارتفاع الكعبة من ١٨ ذراعاً إلى ٢٧ ذراعاً (١٣م

تقريباً) (ابن محمد ١٤٠٤، ج٢: ٧٤). وهذا يعني أنها كانت أطول من مبنى ذي ثلاثة أو أربعة طوابق. وبعد عشر سنوات لاحقة عندما هدم الحجاج بن يوسف هذا البناء وأعاد بناءه، أنقص مساحة المسقط إلى الأبعاد التي كانت عليها قبل بناء ابن الزبير، ولكنه أبقى الارتفاع الجديد كما كان (با سلامة ١٤٠٢: ٩١).

إن هذه السلسلة المتعاقبة من الأحداث تشهد بأن بعض المكيين في ذلك الوقت حرصوا على أن تبقى المباني الأخرى أقل ارتفاعاً من الكعبة المشرفة. وبسبب ذلك فقد كان ارتفاع الكعبة يزداد أولاً ثم يحافظ على هذا الارتفاع الجديد، لأن هناك ضغوطاً بأن تكون ارتفاعات المباني المحيطة بالكعبة من ثلاثة أو أربعة طوابق.

وقد أجرى معاوية في الفترة ما بين ٤١-٦٤هـ (٦٦١-٦٨٣م) أول أعمال عامة لتوفير المياه أثناء فترة ما بعد الهجرة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٣: ٧٣). فبعض مياه الآبار في مكة كانت تحتوي على كمية طفيفة من الملح مرّة الطعم ولا تكفي حاجة الأهالي من ماء الشرب فقام معاوية بتجميع مياه الأمطار وإنشاء عشر عيون (ينابيع)، ولهذه الينابيع قنوات تجري فيها المياه لإمداد السكان بالماء.

وكان ظهور الأعمال العامة على مستوى كبير مرة أخرى أثناء حكم هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ، ٧٨٦-٨٠٨م) فهو على ما يبدو لم يأمر بأعمال معمارية للمسجد الحرام عدا إرساله منبراً جديداً، ولكنه صرف مبالغ طائلة على الصالح العام، وكان بعضها باسم زوجته زبيدة.

وفي القرنين الأولين للهجرة واكبت انتشار الإسلام توسعة المسجد الحرام، وكان من المألوف أنه كلما نعم المسلمون بفترة من الوحدة والازدهار، بنيت مشاريع المرافق العامة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ومن أعمال المرافق العامة الكبيرة التي تمت في عصر الرشيد تحسين درب زبيدة. ويمر الطريق المشهور بدرب زبيدة بين العراق ومكة المكرمة على أرض تعلوها المرتفعات تمتد حوالي ١١٤٠كم ما بين مكة المكرمة وبغداد. وقد أجريت تحسينات بجعل الطريق أكثر عرضاً على طول مرتفعات اللابة، حيث عبدت مناطق تغطيها الرمال الناعمة، مع تزويد الطريق بأبراج عليها نار للإرشاد في الليل (الوقت الذي تتحرك فيه القوافل). وفوق كل ذلك فإن توفير المياه على طول الطريق كان عملاً هندسياً فذاً. فالقنوات والسدود تحول المياه للبرك، من خلال أحواض

الترسيب، في محطات توقف القوافل. وقد عـرف هذا الطـريق بـدرب زبيدة (الراشد ١٤١٤ : ٢١).

ولا شك أن تحسين الطرق وتزويدها بالمـاء والخدمات يؤدي إلـى زيادة عدد الزوار وربمـا السـكان في مـكة. وقـد ازدهرت بعض المواقع على طـرق الحج ومنها الربذة. وعـندما ضعفت السلطة المركزية لبغـداد في الجزيرة العربية سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) لم يـعد الطريـق آمناً فهُجـرت البلدة وأصبـحت الآن مكاناً للتنقيب عن الآثار.

وقد وسّع المسجد الحرام خلال ثلاث وثلاثين سنة من سـنة ١٣٧هـ (٦٥٤م) إلى عهد هارون الرشيد في سنة ١٧٠هـ (٧٨٦م) إلى أربعة أمثـال مساحته، مما تطلب إزالة بعـض المنازل وإعادة بنائها على أطـراف المنطقة الـعمرانية، وكان السكان يفضلون العيش داخل المنطقة التي يسـمع فـيها صـوت المؤذن. وعنـدما توسعت البلدة أصبح الناس لا يسمعون صوت الأذان مما دفع هارون الرشيد إلى بناء المنارات فوق الجبال القريبة من المسجد الحرام لنقل الأذان للوديان البعيدة فبنيت تلك المنارات على جبال قعيقعان وعمر وأجيـاد وثلاثة فـوق جبل أبي قـبيس (الفاكهي ١٤٠٤ : ٣١-٣٤).

وهناك مشروع رئيسي آخر أثناء حكم هارون الرشيد رعته زوجته زبيدة، وهو جلب المياه إلى مكة المكرمة نفسها؛ فقد بُنِيَـتْ قناتان، واحدة من وادي نـعمان وعرفت بعين زبيـدة وهذه تخدم بصفة رئيسية منـاطق الحج، حيث تجري عبر عرفات وقريبة من واديي مزدلفة ومنى، لمـسافـة ٢٥كـم. وكانـت الـصخـور والمنحدرات التي بجوار مكة هي العائق الرئيسي، وتنـتهي هذه القناة على بعد كيلو متـر واحد بالقرب من المعلاة في شـمـال مـكـة المـكـرمـة (الـزواوي ١٣٣٠ : ١٨).

أما القناة الثانية فتبدأ من وادي حنين، وقد سميت بعين حنين، وتقطع مسافة ٢٩كم وتصب في بركة بالمعلاة. وقدرت المبالغ التـي صرفت على هذه المشاريع بحوالـي ١,٧٠٠,٠٠٠ قطعة ذهـبية (الأنصاري ١٣٩٣ : ٣٦).

وإلى جانب بناء قنوات طويلة حسّن إمداد المياه أيضـاً، فالعيون العشر الـتي بناها معاوية وما أضيف إليها فـي وقت لاحق حتى سنة ٩٣هـ (٧١١م) كانت قد غُطيت وأُهملت. وفي عهد هارون الرشيد فتحت هذه العيون ووصلت بنظام جـديد سُـمي عـين الرشـى (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢ : ٢٣٠).

وربما كان هذا النظام هو الصلة التي تربط القنوات القديمة المبطنة بالرصاص (المدرة) داخل مكة بالمياه الجديدة التي تصب داخل البركة الموجودة في المعلاة، كما بنيت بركتان إضافيتان. وهذه العين الجديدة وفرت المياه في المسجد الحرام بالقرب من باب علي. وقد بنى المأمون في سنة ٢١٠هـ (٨٢٥م) بركاً عند شعب ابن يوسف (الآن شعب علي)، الصفا، الخياطين (خلف باب إبراهيم)، سوق الحطب (الآن الهجلة) وبركة عند المسفلة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٣٢).

ويذكر الأزرقي أن كل واحدة من العيون العشر التي أجراها معاوية كانت تقع في حائط، أي بستان فيه النخل والزرع تحيط به جدران، وعندما جلبت زبيدة المياه في وقت لاحق بأسس دائمة أهملت أمكنة جمع مياه الأمطار. وفي الوقت الذي عاش فيه الأزرقي أصبحت معظم هذه الحوائط مهجورة، وبنيت في مناطقها دور. ولم يتبق منها إلا ثلاث عيون من العيون العشر الأصلية وقد بقيت ببساتينها وبمياهها حتى حوالي ٢٤٠هـ (٨٥٤م) عندما كتب الأزرقي كتابه أخبار مكة المشرفة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٢٧-٢٣٢).

وبنهاية الفترة العباسية الأولى استقر عدد سكان مكة المكرمة، مع أن كثيراً من الناس كانوا قد تركوها واتجهوا إلى سوريا والعراق ومصر والمغرب. كما ازداد عدد الحجيج بازدياد الأمن والازدهار وتحسن وسائل المواصلات، وأخذ المسجد الحرام شكله النهائي (عدا إضافة الملحقين بعد قرن) وبقي كما هو لفترة ١٢٠٠ سنة.

إن توفير المياه بكميات كبيرة حوالي سنة ٢٠٠هـ (٨١٥م) ترك أثراً كبيراً على الحجاج والمقيمين بمكة المكرمة. وتأثر شكل البلدة بشبكة إمداد المياه. وقد سُجِّل في المراجع أن الجزء الجنوبي من البلدة بين المسفلة والشبيكة بني أثناء القرن الثاني الهجري الموافق القرن الثامن الميلادي. وقد بنيت وسائل تحكم كافية للسيول، إذ إن منطقة فيضان الأودية أصبحت أقل خطورة، وتأكيداً لذلك بنيت دارا زبيدة في هذا الجزء من البلدة، وهما أول بيتين للخاصة بنيا في هذه الناحية.

كانت المنازل بارتفاع ثلاثة أو أربعة طوابق، وكذا الحال في العهد الأموي، وتحسنت نوعيتها بصورة ملحوظة، إذ إن هذه الفترة شهدت ازدهاراً كبيراً في مكة المكرمة بسبب المبالغ الضخمة التي أنفقت عليها. فالمهدي أنفق على توسعة المسجد وحده أكثر من ١,٥٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية بعد سنة ١٦١هـ (٧٧٧م)، وبعد حوالي عشر سنوات أنفقت زبيدة

١,٧٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية على عين زبيدة وعين حنين (الأنصاري ١٣٩٣: ٣٦). وإنفاق مثل هذه المبالغ يؤكد على أن مكة شهدت ازدهاراً كبيراً.

ليس هناك ذكر لأيّ حمامات بنيت أثناء هذه الفترة إضافة للحمام الذي بناه معاوية، غير أن بيوت الأعيان كانت لها حمامات خاصة. كذلك لم يذكر شيء عن المدارس، والأربطة أو التكايا. ولكن كانت الأسواق موجودة.

وأمّا التركيب العمراني فقد كانت هناك ثلاثة أودية طبيعية، والرابع حُفر ويؤدي إلى كدي، وهذه الأودية بمثابة الطرق الرئيسية التي تدور حول المسجد ثم تؤدي إلى الكعبة، واثنتان من هذه الطرق كانتا تتفرعان إلى شبكة طرق أصغر حينما تقترب من المسجد.

وكان المسجد الحرام نفسه وسط المنازل والمباني التي تحجبه، كما كانت الممرات بين المباني ضيقة وتؤدي إلى بوابات الحرم، وهذه البوابات تقود إلى ساحة المسجد الحرام والكعبة. ولم تكن الشوارع في خطوط مستقيمة لأنها تمر عبر الأودية والتلال، وكذلك البيوت لم تكن في صفوف متوازية حتى تكون شوارع ذات عروض متساوية، فالشوارع كانت دائماً متغيرة في اتساعها وشكلها.

وكان في مكة عدد قليل من الطرق الرئيسية في الأودية تربط المدينة بخارجها، وهناك مجموعة أخرى من الطرق الثانوية المفتوحة المؤدية من منطقة إلى أخرى، وكانت أبواب المنازل تفتح على الطرق الرئيسية أو الثانوية، أما الأسواق والمحلات فكانت في الأماكن المفتوحة العامة وفي بعض الشوارع الواسعة.

لم تكن حارات مكة مغلقة كما هو الحال في دمشق وحلب إذ كان لبعض الأحياء فيهما أبواب تغلق ليلاً لحماية الحارة. وربما كان ذلك لأن مكة بلد للزائرين ومقصد للحجاج والمعتمرين، وقد ذكر بيرتون أن كبار السن في مكة ما زالوا يتذكرون أن سكان كل حي يشعرون بولاء قوي نحوه، ولكل حي نظام أشبه بالشرطة الداخلية لحمايته (بيرتون ١٢٧١، ج٢: ١٥٣).

تناول الأزرقي (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) وصف مكة رَبْعاً رَبْعاً، إذ كان لكل فرع وحلفائهم ربع. ولم يكن الربع يعني قطعة أرض، وإنما هو عادة دور تقع في الأجزاء المختلفة من المدينة. وقام الأزرقي بوصف كل دار بموقعها وأهلها ونشاطهم، وقد وصف ما مجموعه ٣٧ ربعاً تضم أكثر من ١٠٠ دار.

ويبدو من الوصف أن مكة المكرمة كانت متشعبة الأطراف، وكانت الدور والبيوت هي الوحدات الأساسية، ولم يكن من الضروري أن تكون بيوت العشيرة الواحدة في نطاق محدد، بل كانت تنتشر بالمدينة فالروابط العائلية كانت أقوى من روابط المكان.

وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وصف ناصر خسرو مكة حين زارها وذلك في كتابه سفر نامه على النحو التالي:

> وقد بلَغْتُ مكة يوم الأحد السادس من ذي الحجة سنة ٤٤٠هـ... وتقع مكة بين جبال عالية، ولا ترى من بعيد، وأقرب جبل منها أبو قبيس وهو مستدير كالقبة... وقدرت أن سكانها القاطنين بها لا يزيدون على ألفين والباقي يقربون من خمسمائة من الغرباء المجاورين، وقد كان لأهالي كل مدينة من خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة (خسرو ١٣٩٠: ١٢٦-١٣٤).

العناصر العمرانية. تتمثل العناصر العمرانية في مكة في المساجد والأسواق والحمامات والأربطة والمدارس والأسوار والدور وقنوات المياه والبرك.

المساجد: شرف الله مكة المكرمة بأن جعل فيها أول بيت لعبادته، قال تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ (٩٦: آل عمران). ومن هنا كانت الانطلاقة نحو العمارة، وكان لعمارة الحرمين الشريفين أثر بارز في تطور العمارة. ذلك أن الخلفاء والولاة والحكام والدول أولوا عمارة الحرمين اهتماماً كبيراً لمكانتهما في قلوب المسلمين، ولا شك أن أثر ذلك لا بد أن ينعكس على حرفة العمارة وتطورها، ورغم تجنب الناس محاكاة مباني الحرمين ومضاهاتهما حتى في مساجدهم تأدباً وحرصاً على خصوصيتها إلا أن بعض التأثيرات إن لم تظهر في الشكل أو عليه فإنها تكون في عمليات البناء نفسها.

وهناك مجموعة أخرى من المساجد أشهرها مسجد التنعيم خارج حدود مكة وينسب إلى السيدة عائشة $، وقد

المسجد الحرام عام ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م

مكة المكرمة كما تبدو من إحدى المآذن الشرقية للحرم المكي عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م

أمر الخليفة المقتدر بتجديد بناء هذا المسجد سنة ٣١٥هـ. ومن المساجد الأخرى مسجد نمرة ويقال له مسجد عرفة، ومسجد إبراهيم ويقع هذا المسجد على حدود عرفة، ومسجد الكوثر بمنى وقد عمر هذا المسجد سنة ٢٥٦هـ في زمن الخليفة العباسي المعتمد، ومسجد الجن ويقع في المعلاة، ومسجد الراية ويقع بجوار الجودرية عند نهاية المعلاة من ناحية الحرم، والمسجد الذي ينسب إلى أبي بكر الصديق بأسفل مكة ويقال إنه الدار التي هاجر منها أبو بكر إلى المدينة، وهناك مسجد في أول حارة الشبيكة يعرف بمسجد خالد ابن الوليد وهو المكان الذي غرز فيه خالد رايته يوم فتح مكة، والمسجد الذي بذي طوى وهو الموضع الذي صلى به النبي ﷺ حين اعتمر (مالكي ١٤٠٣: ١٧١-١٧٥).

الأسواق: كانت تعقد في مكة أو قريباً منها أسواق للعرب وكانت أشهر الأسواق التي تعقد في الأشهر الحرم الأربعة، سوق عكاظ في ذي القعدة، وسوق مجنة وسوق ذي المجاز في ذي الحجة، وكانت هذه أفضل الأسواق وأهمها لأن العرب تنعم فيها بأمن الأشهر الحرم. فكانت تستأثر بأعداد كبيرة من الوافدين لأنها كانت تعقد قبل موعد الحج بفترة ليست طويلة، ويبدو أن معظم

من كان يحضر هذه الأسواق الثلاث، كان يظل بها حتى يؤدي الحج. وتؤكد الوثائق المدونة أن قريشاً أجبرت العرب على ألا يحضروا هذه الأسواق ما لم يكونوا محرمين للحج.

وكانت سوقا ذي المجاز والمجنة آخر الأماكن للتجارة وتقعان خارج حدود الحرم المكي. كما كان أهل مكة قبل الإسلام لا يسمحون لغير المكيين ببيع البضائع داخل نطاق الحرم في موسم الحج. وقد تراجعت سوق عكاظ حتى انتهى أمرها سنة ١٢٩هـ (٧٤٦م). ويبدو أن أهمية الأسواق قد تضاءلت بصفة عامة في فترة ما بعد الهجرة، وانتعش المربد فقط غربي البصرة.

وفي فترة ما بعد الهجرة كانت الأسواق هي المصدر الأول لتبادل السلع، وقد حددت المصادر التاريخية هذه الأسواق وطرقها وأماكنها وكذلك الوظائف التي كانت تقوم بها. ولا توجد أية روايات من زمن الهجرة تشير إلى وجود أية أسواق بمكة في ذلك الوقت.

وبعد قرنين ونصف من الهجرة تقريباً، أي سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م) أشار الأزرقي إلى ست وعشرين سوقاً، وتحدث عن أربع منها منفصلة هي: الحوازرة، والليل، والفاكهة، والرطب. وتبعاً لرواية الأزرقي فإن الحوازرة قد اختفت في بداية توسعة المسجد الحرام، والثلاث الأخرى ربما كانت أقدم من الاثنتين والعشرين المذكورات في القائمة (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٣٣-٢٦٥).

وربما تكون الأسواق الكبيرة مثل عكاظ وذي المجاز والمجنة قد تراجعت وأقيمت بدلاً منها أسواق داخل مكة، وربما تكون مثل هذه الأسواق قد مرت بمراحل انتقالية فصلية أو أسبوعية قبل أن تصبح يومية. ومن المعروف أن سوق عكاظ قد انتهت سنة ١٢٩هـ (٧٤٦م) كما تقدم، ولذا يفترض أن الأسواق الدائمة قد أقيمت بمكة قبل هذا التاريخ. ويبدو أنه بعد انتشار الإسلام واستتباب الأمن لم تعد الحاجة إلى الأسواق الموسمية المرتبطة بالأشهر الحرم مُلحَّة، فانتهت أسواق عكاظ وذي المجنة والمجاز وأمثالها وحلّت محلها الأسواق المتخصصة داخل المدن.

وقد تكون الأسواق الأربع (الحوازرة، الليل، الفاكهة، الرطب) قد أنشئت في القرن الأول من الهجرة، في مرحلة الاندماج العمراني لمكة، أما الاثنتان والعشرون سوقاً الأخرى فربما أنشئت بين القرنين الأول والثاني الهجريين.

وتشير أسماء الأسواق إلى السلع والبضائع أو الحرف التي كانت تمارس في هذه الأسواق، ويعتقد بأن الأسواق كانت مساحات مفتوحة تعرض فيها السلع. وهذه هي الأسواق كما أوردها الأزرقي:

١) سوق الحوازرة
٢) سوق الليل
٣) سوق الفاكهة
٤) سوق الرطب
٥) سوق الحناطين
٦) سوق الحذائين (الأحذية)
٧) سوق الحدادين
٨) سوق الجزارين
٩) سوق العطارين
١٠) سوق النجارين
١١) سوق البزازين
١٢) سوق البقالين
١٣) سوق الحجامين
١٤) سوق الحواتين (الأسماك)
١٥) سوق الحمارين
١٦) سوق الخياطين
١٧) سوق العلافين
١٨) سوق الغزالين
١٩) سوق القواصين
٢٠) سوق اللبانين
٢١) سوق الوراقين
٢٢) سوق الدقاقين
٢٣) سوق المذوقين
٢٤) سوق الرواسين
٢٥) سوق الصيارفة
٢٦) سوق الخرازين (السِّبَحَ) من الخرز (١٩٧٨، ج٢: ٢٣٣-٢٦٥).

الحمامات: كان الأزرقي في كتابه أخبار مكة المشرفة هو أول من ذكر الحمامات فأخبر أنه كان في مكة المكرمة ثلاثة حمامات، ومن وصفه يبدو أن هذه الحمامات كانت عامة. وربما كانت حمامات للاستخدام الخاص، ولكن لم ترد أخبار عن ذلك. ويبدو أن الحمامات العامة في مكة ترجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٣هـ (٦٦٣م) حين ربطت عشر عيون ماء بقناة تصل إلى المسجد الحرام (الأزرقي ١٩٧٨، ج٢: ٢٢٧-٢٤٣-٢٦٥)

الأربطة: الأربطة (مفردها رباط) وتعني معسكراً أو مكاناً محصناً، ولكن الرباط في مكة يعني مبنى لإقامة الفقراء حيث ترتب الغرف في صف، وكل رباط له وقف يحدد الفئة التي يحق لها الإقامة فيه. وعلى سبيل المثال كانت بعض الأربطة مخصصة للنساء فقط، وبعض آخر كان مخصصاً للقادمين من بلد معين، وبعض ثالث كان لأي شخص

فقير. وتعزى كثرة الأربطة في مكة إلى كثرة الوافدين إلى مكة للإقامة طلباً للعلم وبعداً عن البلاد الإسلامية التي كانت تعاني في تلك الفترة فتناً كثيرة (مالكي ١٤٠٣: ١٤١).

إن تاريخ الأربطة أقدم بكثير من تاريخ المدارس، وأول رباط سجل في مكة كان رباط السدرة الذي يرجع إلى عام ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) في العصر الفاطمي. وعند بداية عصر الأيوبيين عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) كان هناك اثنا عشر رباطاً في مكة، ستة منها بالقرب من أبواب المسجد الحرام، والستة الأخرى كانت بعيدة إلى حد ما. وخلال الأعوام السبعة والسبعين التي حكم فيها الأيوبيون زاد العدد إلى ثمانية عشر رباطاً (الفاسي ١٩٥٨، ج١: ٣٣٠-٣٣٧). وكانت هذه الأربطة تنشأ عن طريق أوقاف الحكام أو عائلاتهم وأصحاب المناصب المهمة أو الأثرياء.

وحينما بدأ إنشاء المدارس بعد عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) بنيت أربطة كثيرة كأجزاء من المدارس، أي أبنية ملحقة بالمدارس.

ومن أهم الأربطة التي أقيمت بمكة في القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري، رباط السدرة (عام ٤٠٠هـ) على يسار الداخل من باب بني شيبة (الفاسي ١٩٥٨، ج٢: ٥٢٧)، ورباط الفُقَّاعية (عام ٤٩٢هـ) عند باب المنفرد في زيادات دار الندوة، الذي أوقفته والدة الخليفة العباسي المقتدي بالله على النساء الأرامل الأعجميات. أما أربطة القرن السادس الهجري فتشمل رباط رامشت (عام ٥٢٩هـ) قرب باب الحوازرة (وقف الشيخ إبراهيم الفارسي للصوفيين الذكور من العراق)، ورباط القزويني (٥٢٩هـ) الذي يقع قرب المسجد الحرام وهو مخصص للغرباء المقيمين في مكة من العراق، وسمي باسم رباط القزويني، لأن حجاج قزوين كانوا ينزلون فيه، ورباط الدمشقية أنشأه تجار دمشق (٥٢٩هـ) عند باب الحازمية (وقف لأهل دمشق والعراق)، ورباط الزرندي (٥٣٠هـ) أوقفه الشيخ نجيب الدين أبو الحسن على قومه الغرباء من أهل زرندة، ورباط المراغي (٥٧٥هـ) كان مرتبطاً برباط السدرة (وقف قاضي القضاة) ويقع عند باب الجنائز، ورباط العفيف (٥٧١هـ) بجوار مدرسة الأرسوفي (وقف للفقراء وأبناء السبيل أو المحليين)، ورباط القيلاني (٥٧٥هـ) بجوار باب الجنائز (وقف لعموم الصوفيين)، ورباط الخاتون (٥٧٧هـ) عند باب العمرة (وقف الشريفة فاطمة الخاتون للصوفيين)، ورباط قايماز

(٥٧٨هـ) ويعرف كذلك برباط أبي سماحة في أعلى مكة على يمين الذاهب إلى المعلاة وهو وقف من سلطان الروم لأتباع الإمام أبي حنيفة، ورباط العطيفية (٥٧٩هـ) وقف أم الخليفة الناصر للفقراء والصوفيين، ورباط ابن السوداء (٥٩٠هـ) بجوار الدريبة، وقف للنساء الشافعيات غير المتزوجات، ورباط ربيع (٥٩٤هـ) في أجياد، (وقف السلطان نور الدين لأبناء السبيل الفقراء) (الفاسي ١٩٥٨، ج٢: ٥٢٧-٥٣٧).

وتشمل أربطة القرن السابع الهجري رباط القاضي الإسكندري (٦٠٤هـ) عند أسفل مكة ويعرف كذلك برباط عثمان بن عفان، لأنه يقع في دار عثمان بن عفان، ويعرف أيضاً برباط المغاربة لأنه وقف على فقراء المغرب الغرباء ذوي الحاجات، وبيت المؤذنين (٦١٧هـ) عند سوق الليل، ورباط الخوزي (٦١٧هـ) عند زيادات باب إبراهيم، ورباط الشرابي (٦٤١هـ) الذي بناه الأمير شرف الدين الشرابي وزير المستنصر العباسي أمام المدرسة التي بناها عند باب السلام وجعله وقفاً على طلبة هذه المدرسة (الفاسي ١٩٥٨، ج١: ٥٢٧-٥٣٧).

المدارس: أمّا المدارس فعلى الرغم من أن الفاطميين أسسوا الأزهر بعد إنشاء القاهرة مباشرة سنة ٣٥٨هـ الموافق سنة ٩٦٨م، فإنّ ذلك لم يؤد إلى ظهور مدرسة مشابهة أو جامعة في مكة المكرمة. فقد استمر العلماء في استخدام المسجد الحرام ومنازلهم الخاصة مواقع للتدريس والدراسة.

وفي مكة المكرمة بنيت أول مدرسة، وهي مدرسة الأرسوفي، بدعم وَقْف سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) بالقرب من باب العمرة، وهي وقف الأرسوفي للفقراء. وقد تم ذلك مباشرة قبل تولي صلاح الدين السلطة في مصر. تبعتها المدرسة الثانية وهي مدرسة الزنجبيلي بعد ثماني سنوات، وبنيت أيضاً بالقرب من باب العمرة وهي وقف نائب عدن للحنفيَّة. أما المدرسة الثالثة فقد بنيت في السنة التالية، وهي مدرسة طاب الزمان الحبشية جارية المستنصر العباسي (٥٨٠هـ) وتقع بموقع دار زبيدة، وهي وَقْف للشافعيَّة.

بعد بناء المدارس الثلاث الأولى في الثلث الأخير من القرن السادس الهجري، استمر بناء المدارس باطراد على مدار أربعة القرون التي أعقبت القرن السادس (معروف ١٩٨٨: ٣٣٠-٣٣٧). ولهذه المدارس خدمات داخلية ملحقة بها كالأربطة. ويظهر أن هذه الأربطة بنيت بعد إنشاء المدارس في القرن

السادس الهجري الموافق القرن الثاني عشر الميلادي، كمساعدات من قبل الواهبين، وكانت خدمات الأربطة ملحقة بها.

ومن مدارس القرن السابع الهجري مدرسة النهاوندي، وتقع بالقرب من باب الدريبة، والمدرسة الشرابيّة (٦٣٢هـ) وتقع على يمين الداخل من باب السلام، ومدرسة ابن أبي زكريًّا (٦٣٥هـ) وتقع بالقرب من المدرسة المجاهديَّة، ومدرسة ابن الحدّاد المهدوي (٦٣٨هـ)، وتقع بالقرب من مدرسة الأرسوفي، وهي وَقْف للمالكيَّة، والمدرسة المظفَّريَّة (٦٤١هـ)، وتقع في الجانب الغربي من المسجد، وهي وَقْف صاحب اليمن المظفَّر للشافعيَّة، وتعرف هذه المدرسة كذلك باسم مدرسة الشلاح، نسبة إلى أمير مكة فخر الدين الشلاح، وقد زار ابن بطوطة هذه المدرسة وكتب عنها في رحلته.

ومن مدارس القرن الثامن الهجري مدرسة دار العجالة (٧٢٠هـ) وتقع على يمين باب العجالة، ومدرسة المجاهديَّة (٧٣٩هـ) وتقع بين باب السلام وباب الدريْبَة، وهي وَقْف صاحب اليمن المجاهد للشافعيَّة، والمدرسة الأفضليَّة (٧٧٠هـ) وتقع بعد باب النبي، وهي وقف صاحب اليمن الأفضل للشافعيَّة، ومدرسة الشريف عجلان (٧٧٢هـ) وهي وقف شريف مكة المكرمة.

أما مدارس القرن التاسع والعاشر فأهمها، المدرسة الغياثيّة (٨١٣هـ) تقع على باب أم هانئ وهي وَقْفُ صاحب البنغال، والمدرسة الباسطيَّة (٨٢٦هـ) وتقع على باب الباسطيَّة، وهي وَقْفُ الدمشقي، ومدرسة قايتباي (٨٨٢هـ) وتقع على موقع رباط السِّدرة ورباط المراغي، وهي وَقْفُ سلطان مصر لأتباع المذاهب الأربعة، والمدرسة الكنبايتيَّة، تقع على الجانب الشمالي، وهي وقفُ سلطان قُجرات في الهند، والمدارس الأربع، (٩٧٢هـ) وتسمى المدارس السلطانيّة أو المدارس السليمانية، وتقع على الجانب الشمالي بين باب الدريبة وباب الزيارة، وهي وقفُ السلطان سليمان القانوني لأتباع المذاهب الأربعة.

الأسوار: كان يحيط بمكة سور من أعلاها إلى أسفلها وله باب محكم يسمى باب المعلاة، ولم تذكر المصادر التاريخية من الذي بنى هذا السور. ويذكر الفاسي في كتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام أن الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس هو الذي جدّد هذا السور من الجهة الشرقية (١٩٥٨، ج١: ١٠-١٧). ويذكر أحد المؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع

أن سور مكة كان موجوداً زمن خلافة المقتدر العباسي سنة (٢٩٥هـ) وهذا هو الرأي الأرجح.

وحينما هاجم القرامطة مكة سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) وقتلوا آلافاً من الحجاج والمواطنين، مر الحجاز بفترة عصيبة إذ انكمشت فيها ثروات مكة. ولّما قام حكم الأشراف سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م) كان أول حاكم من الأشراف جعفر بن محمد وهو الذي أقام الأسوار حول مكة لحمايتها، وكانت هذه الأسوار عبر ثلاثة أودية تقود إلى مكة، وجعل في هذه الأسوار بوابات، ولا تتوافر في المصادر المختلفة أخبار حول أبعاد هذه الأسوار.

وحينما زار ابن جبير مكة سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) ذكر أن الأسوار كانت بين التلال في المعلاة والمسفلة وطريق باب العمرة. وفي زمن زيارة ابن جبير تهدمت الأسوار. وفي نهاية القرن السادس الهجري ٥٩٨هـ (١٢٠٢م) أكمل قتادة بن إدريس، أحد الأشراف، إحاطة مكة بسياج من الأسوار على التلال وفي الأودية.

الدُّور: يصف هورغرونيه بيوت مكة المكرمة عام ١٨٨٥م (١٣٠٣هـ) فيقول:

«أهل مكة يبنون بيوتهم في الغالب بحجارة تقطع من جبال قريبة من مكة وأجودها من جبل الشميس. وتسقف البيوت المتواضعة بالحصير وتغطى بالرمل. أما المهندسون المعماريون الأتراك والسوريون ممن يبنون للأشراف والتجار فيكسون الأسطح والأرضيات وعتبات السلالم بنوع من الإسمنت يسمى (الطبطاب) الذي ترمم به البيوت القديمة، أرضياتها وسطوحها. (نصر ١٩٩٥: ١٩٨).

ويصف هورغرونيه البيت المكي بشكل عام لأنه ليس ثم أسلوب واحد للبناء، إذ يتابع أحسن المعماريين رغبات الأثرياء، أما الفقراء فيبنون حسب المواد المتاحة ومساحة المبنى. يأتي بعد المدخل في البيت المكي الدهليز ذو أرضية مبلطة بالطبطاب أو مفروشة برمل. ويستقبل صاحب البيت الضيوف العابرين في هذا الدهليز على مركازين وهما مقعدان خشبيان كالذي في المقاهي. وقد تكون على جانبي الدهليز أو على أحدهما بعض الغرف الصغيرة وهي أعلى مستوى من الدهليز تجنباً للأمطار وتسمى مقاعد ويستخدم كالمكتب أو غرفة استقبال للمعارف أو للنوم أو تخزين البضائع والأمتعة وقد يستخدم جزء من الدهليز لشيء من ذلك.

ويخص هورغرونيه الدهليز في بيوت الأثرياء فيصفه بأنه فخم له جزء خلفي يرتقى إليه بعتبات يغطيها السجاد وعلى جوانب حيطانه مساند ومخدات للجلوس عليها أو الاضطجاع، وقد ترفع المخدات والمساند على كرويته وهي سرير خشبي قصير القوائم وتبسط الكراويت بمحاذاة الحيطان كلها حيث يكون هذا ديواناً للاستقبال العادي، وفيه يتناول الرجال وجباتهم مع ضيوفهم أو أصدقائهم. ويتيح هذا الديوان مع ما يحيط به من غرف استقبال الضيوف الغرباء.

ويذكر هورغرونيه أن الطابق الأرضي يشتمل على جملة مرافق منها بيت الماء أو الطهاره وفيه حمام فيه زير كبير يفي بحاجة الطابق كله من الماء، وثمة حائط صغير جعل خلفه المرحاض وهو مقعد يرتفع نحو ١٠سم عن الأرض فيه شق واسع يجلس فوقه المرء ليقضي حاجته. وقد يجعل في الطابق الأرضي غرفة واسعة منفصلة عن دهليز المدخل تستخدم كالديوان. ويبني بعض الأثرياء بركة حجرية تصف فيها مئات القرب لتلطف من حرارة الجو. ولبعض المنازل باب في الحائط الخلفي يفضي إلى ساحة تحيط بها بيوت صغيرة تتصل بالشارع العام بزقاق ضيق.

ويشير هورغرونيه إلى أن الطابق الأرضي مقصور على الرجال لذلك لا تكاد ترى فيه المرأة إلا محجبة أثناء الخروج أو الدخول من المنزل وإن كان البيت بطابقيه لأسرة واحدة فإن المرء لا يصعد للطوابق العليا إلا بإذن أو مع أحد أهل الدار، وفي الغالب تسكن الأسرة في طابق أو نصف طابق من البيت ذي الطوابق الثلاثة أو الأربعة. وفي مثل هذه البيوت يصعد الرجال بحذر شديد منبهين من حين إلى آخر إلى أنفسهم بقولهم: يا ستّار! كناية عن التنبيه إلى التستر وقد ينادون بأي اسم من أسماء الله الحسنى لتتحجب النساء اللاتي يخرجن من غرفة إلى أخرى أو ليفسح الطريق، وحين يصل الزائر إلى الطابق المراد ينادي باسم ساكنه الذي يخف لاستقباله فإن لم يكن موجوداً سمع الزائر تصفيق النساء كناية عن غيابه. ويمر الصاعد على بعض الأبواب خلفها دواليب كبيرة أو مخازن وهي تابعة للطابق الذي فوقها.

وعلى الرغم من تشابه الطوابق في البيوت الراقية فإن عدد الغرف وأحجامها ومراحيضها قد تختلف اختلافاً عظيماً، وتقل المساحة المشغولة كلما ارتفعنا صعدا إما لحاجة الطابق إلى سطوح أو لعجز

عن البناء، فإذا جعل للطابق الثاني سطح نقص ذلك من مساحة الطابق الثالث، ويستخدم هذا السطح مجلساً في الهواء الطلق ويسمى خارجه، وهي من أكثر الأماكن انعزالاً في البيت لأنها ذات وظائف خاصة مختلفة كنشر الملابس والنوم فيها صيفاً، ولذلك فهي محاطة بحيطان من الطوب الأحمر ويفصل كل طوبتين فراغ بقدر ما يدخل الهواء، وقد يكون للزوجين سطح خاص أو أن تقسم السطوح بستائر أو حواجز بقدر الأسر وقد تبنى في هذا السطح غرفة صغيرة تسمى مبيتا يجعل فيها سرير الزفاف.

ويستطرد فيذكر طرفاً من عادات النوم عندهم فيذكر أن الشبان والصبية يجدون مكاناً مريحاً للنوم على السطوح أو ينامون مثل الفقراء على مراكيز أمام باب الدار أو في المقاهي، ويذكر أن المكيين لا ينامون في الهواء الطلق شتاءً ومع ذلك فقليل منهم له غرفة نوم خاصة إذ لا حاجة لمثلها فهم يغتسلون في الحمام وينامون بملابسهم نفسها مكتفين بخلع الجبه والغتره أو الشايه مما يلبس خارج المنزل، يضعون سريراً في أي مكان أو يستلقون على المراتب (الطراحات) أو المساند أو المخدات. ويكثر المكي من القيلولة ليجد في الليل المعتدل الحرارة وقتاً للسمر.

ويعود مرة أخرى إلى تفاصيل المنزل المكي فيذكر أن لكل طابق مجلساً بنوافذ تطل على الشارع وخلفها دكان خشبية هي الكراويت عليها طراحات ومخدات. وللنوافذ الوسطى رواشين مطلة على الشارع والروشان كالبلكون وهي مغلقة بشبابيك من جهات ثلاث والشباك من الخشب المثقب ليدخل الضوء والهواء ويستر من بالداخل. وفي الشباك لوحة تسمى طاقه وجمعها طيق أو طيقان، وتطلق هذه التسمية على الألواح الخشبية على طول حائط الغرفة وتوضع عليها الأواني الصينية والزجاجية والفخارية، وكل طاقة يمكن رفعها أو خفضها ثم تثبيتها بخطاف صغير (سقاطه) وإذا فتح الشباك تدلت ستارة ذات ألوان زاهية تسمى كبريته (جمعها كباريت) وهي مصنوعة من أعواد نحيفة مضموم بعضها إلى بعض كالحصيرة. وفي المجلس كراويت كما لمجلس الطابق الأرضي، وأرضيته مفروشة بحصائر فوقها سجاد. ويدخل إلى المجلس مروراً بغرفة أصغر منها تسمى صفّه وفيها يستقبل صاحب الدار الخُطّار غير المتوقعين إن كان في المجلس نساء، وفي الصفة يكون المباشرون الذين يخدمون الضيوف. وقد يكون على جانبي المجلس والصفه مخازن ودواليب.

وإن كان ثمة فراغ بين المجلس والصفة جعل مرحاضاً أو مطبخاً. ولكن المطبخ الأصلي في السطوح وهو فرن حجري مثقب ويطلق على هذه الملحقات الخزنه وقد تلجأ إليها الزوجة إن جاء زائر لزوجها حتى تتمكن للانتقال إلى غرفة أخرى. (نصر ١٩٩٥: ١٩٨-٢٠٣).

وفي مكة مجموعة من الدور القديمة، منها دار الهنا التي تعد أقدم المنازل الموجودة في مكة المكرمة. أما تاريخ إنشاء هذا المنزل، فإن هناك كتابة محفورة على جدران المجلس تُرجع تاريخه إلى سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م، ولكن ربما لا يكون ذلك تاريخ البناء. إن دراسة الأعمال الخشبية في الرواشين والشباكة الحديدية التي على النوافذ، والتغيرات في مستويات الأرضيات وتعقد تخطيط المنزل، كل ذلك يدعو إلى الظن بأن هذا المبنى يعود تاريخ بنائه إلى أكثر من ثلاث مئة سنة على الأقل. والمنزل بالقرب من المسجد الحرام في إحدى أقدم مناطق مكة، والوصول إلى المنزل يكون عبر برحة مفتوحة على زقاق، والبرحة فضاء خاص بين المباني. والبرحات هي أحد مظاهر النسيج العمراني بمكة المكرمة. وهو ذو طبيعة معقدة، إذ احتوى على خمسة سلالم ومدخلين رئيسيين ومدخل جانبي، وله كذلك ثمانية مناور للإضاءة والتهوية، وبدون معرفة معلومات كافية عن هذا المنزل فمن الصعب التعرف على وظيفته واستخدامه. وربما كان دائرة حكومية أو منزل عائلة كبيرة أو قصراً لأحد الحكام. ومع ذلك فإن تصميم المنزل يعكس أسلوب الحياة التقليدية في العائلات الكبيرة والعلاقات الاجتماعية في مكة المكرمة. وربما يكون هذا البيت قد بني في فترات مختلفة، وأضيفت إليه أجنحة منفصلة، وربما تكون عائلة كبيرة قد عاشت فيه، إذ يبدو أن هناك أربعة أقسام واضحة.

إن واجهة منزل دار الهنا تعد إحدى أجمل الواجهات في مكة المكرمة، وهي أقرب إلى الطراز المملوكي، ومن عناصر هذه الواجهة المدخل ذو الأقواس ذات الارتفاعين التي تحيط بالباب، ثم العتبة، ولوحة تاريخ البناء، ونافذة للإضاءة العلوية. بالإضافة إلى ذلك هناك أقواس ثلاثية المركز في النوافذ والشبك الحديدي. وشكل الواجهة وتكوينها يتبعان النمط المكي؛ إذ تحظى الواجهة الخارجية بأكبر قدر من الزخرفة.

ولو تتبعنا طوابق دار الهنا وجدنا أن الطابق الأول يضم مجلساً كبيراً ذا ثلاث نوافذ، اثنتان منها رواشين. وفي غرفة

العائلة روشان يتوسط واجهتها، وروشان آخر فوق القوس ذي الارتفاعين الذي يعلو المدخل الثاني، وهناك روشان آخر في المستوى الأوسط.

ويلاحظ أن النسبة الذهبية ١:٦,١ قد روعيت تماماً، وعلى سبيل المثال فإن مخطط غرفة القاعة الرئيسية قد اعتمد على نسبة ١:٦,١. بالإضافة إلى ذلك فإن الفتحات والحنيات المختلفة حددت بالدوران من نقاط بؤرية مختلفة.

ومن ناحية أخرى فإن الواجهة الرئيسية اعتمدت أساساً على المربع والتقسيمات الفرعية لزاوية ٤٥°. والواجهة عموماً مربعة الشكل، وموضع العناصر الرئيسية، مثل الأبواب والنوافذ وشرفات السطح كلها مثبتة وفق هذا النمط الهندسي. والنوافذ ذات نسب ذهبية (١:٦,١) مع بعض التعديلات، مثل إضافة مربع لجعل الواجهة أكثر حيوية.

وهناك داران في السوق الصغيرة، كانتا ضمن كتلة سكنية تضم أربع دور، ويدل تصميم المباني وقدم هذه المنطقة على أن عمر المباني يزيد على ٣٠٠ سنة. وعلى الرغم من أن واجهتي الدارين تدلان على أنهما قد عُدتا مبنى واحداً، إلا أنهما منفصلتان تماماً في الداخل، ومداخل الدارين على الجوانب المختلفة للمبنى.

وفي الدور الأرضي هناك المخازن، وصالة مدخل الدهليز ذات ارتفاع مزدوج. وبيت السلم يقود إلى الطابق الأوسط وإلى مكان الاستقبال، والمقعد يطل على الدهليز، وله نوافذ على الشارع.

وفي الطابق الأول، حجرتان كبيرتان هما، المجلس والمؤخر وهناك الصفه وكأنها ممر. وهناك دورة المياه في نهاية ممر وليست على البسطة، وليس للمجلس روشان. وفي الطابق الثاني، تظهر شرفات السطح فوق المجلس، مع وجود مؤخر حوّل إلى مبيت. وفي الطابق الثالث، أصبح المبيت شرفة، وفي الطابق التالي أصبح سطح الدرج هو الخارجة الأخيرة.

إن الواجهات والأعمال الخشبية والآجور غير موجودة في هذا المبنى، ومع ذلك، فإن تخطيط هذا المبنى يقدم مثالاً جيداً لبيوت مكة، إذ إنه يمتاز بعناصر غير معتادة، مثل صالة المدخل ذات الارتفاع المزدوج، والخارجات التي تبدأ من الطابق الثاني وليس من الطابق الثالث، كما أن مظهر البيتين اللذين صممما بالمخطط نفسه في مبنى واحد أمر مألوف.

وفي منطقة قريبة جداً من المسجد الحرام ثمة ثلاثة منازل، وهذه المنازل أيضاً منازل مركبة، وكان لها مدخلان وثلاثة بيوت للدرج تشكل ثلاثة منازل منفصلة،

ولقد كان هذا المبنى جزءاً من مجموعة أبنية تضم نحو عشرة منازل، ومن الصعب تحديد عمر هذا المبنى، إلا أن تنظيم واجهاته وعناصرها المعمارية تشير إلى أن عمره أكثر من ثلاث مئة عام.

ويحتوي الطابق الأرضي على غرف الاستقبال، ومقعد، بالإضافة إلى غرف ذات وظائف غير واضحة. ومن المحتمل أن تكون إحداها ديواناً، والديوان مجلس كبير في الطابق الأرضي، وهذا الديوان كان ذا مساحة كبيرة، وكان أفضل مكانةً من المجلس في الطابق الثاني، والحجرات الأخرى يمكن أن تكون مخازن أو مساكن للحجاج أو لأعمال أخرى.

كما يحتوي الطابق الأول على ثلاث عزلات (أجزاء أو شقق)، والحجرات متصلة، ومخطط البيت يشبه إلى حد كبير نمط البيوت المكية. والمجلس في الطابق الثاني، ولكن يبدو من الواجهة أنه في الطابق الأول. وهناك حجرتان يمكن عدهما مجلسين، وإن كان المبنى يضم ثلاثة منازل. وهذا يقودنا إلى الظن بأن استخدام هذا المبنى ربما كان أكثر تعقيداً مما يظهره مخططه.

وفي المستوى التالي يظل المجلس مرتفعاً، ولكن لبعض الحجرات القليلة الأهمية مستوى آخر، والطابق الموجود فوق المجلس له أسطح ذات شرفات فوق السقف كله. وهذه الشرفات يختلف بعضها عن بعض من حيث مستوياتها اختلافاً طفيفاً تبعاً للحجرات الموجودة أسفلها. ومع ذلك فإن في الطابق الثالث مستوى واحداً من الخارجات.

والواجهة ذات مستويين منفصلين من النوافذ والمداخل. وأحد المداخل ذو ارتفاع مزدوج، يرتفع قوسه تقريباً حتى روشان المجلس الذي يعلوه. وعلى النقيض من ذلك فإن المدخل المجاور أكثر انخفاضاً عن مستوى نوافذ الطابق الأرضي، ولا ريب أن المدخل المرتفع هو المدخل الرئيسي. وكذلك فإن الروشان الذي يعلو المدخل الرئيسي أكثر اتساعاً ويضم أربعة أجزاء، مما يعطيه أهمية تفوق أهمية الروشان الكائن على الجانب الأيسر من الواجهة الذي يضم ثلاثة أجزاء فقط.

وتمتاز نوافذ الطابق الأرضي بوجود شبكة من الحديد المشغول. ونوافذ الطابق الأول صغيرة أشبه ما تكون بطاقات للإضاءة العلوية. ونوافذ الطابق الثاني طويلة وتشمل في تصميمها طاقات الإضاءة العلوية، عدا مجموعتين من النوافذ في أقصى اليمين، حيث أضيف طابق آخر. ويعلو الآجور قمة المبنى،

وتحيط بالنوافذ إطارات مستطيلة، وليس ثمة أقواس فوق الفتحات كما في بعض المباني التي بنيت فيما بعد.

والنوافذ مشغولة من مصاريع بإطارات على مفصلات، وهي تشبه في عناصرها وإعدادها نوافذ دار الهنا، ومع ذلك فهناك زخرفة قليلة في الأعمال الخشبية أو في الآجور، وهذه أمور غير معتادة في بيوت مكة القديمة. وهناك تفسير محتمل لقلة هذه الزخارف، وهو أن الواجهة والأعمال الخشبية ربما تكون قد جددت بعد بناء المبنى.

وهذا المبنى جميل جداً، إذ قُسمت أرضيات الطوابق بعناية، وله واجهة جديرة بالإعجاب. وعمر هذا المبنى ما بين ١٥٠ و٣٠٠ سنة، ومع ذلك وبسبب مسقطه المعقد، والاختلافات في أهمية الفراغات، واختلافات مستويات الأدوار، والعناصر المعمارية القريبة للطراز المملوكي، فربما زاد عمره على ٣٠٠ سنة.

وهناك دار في حارة الباب، في منطقة بعيدة عن المسجد الحرام، وهي من الدور الحديثة. ويعتقد بأن عمر مبناها ما بين ٥٠ و١٥٠ سنة. وتعد هذه الدار مثالاً آخر لدارين في مبنى واحد أعد تصميمه بعناية. وللمبنى مدخل واحد يؤدي إلى درجين في مؤخرة المبنى، كل درج منهما يخدم إحدى الدارين. وتوجد حوانيت في الطابق الأرضي، خلفها صالات استقبال لكل من الدارين، ومنور صغير في وسط المبنى.

وخلف المبنى وعلى أحد جانبيه فراغات ضيقة تفصل المبنى عن المباني المجاورة لتوفر الضوء والهواء للحجرات الخلفية. والمبنى بهذه الصورة أشبه ما يكون بالجزيرة.

والطابق الأرضي إلى حد ما غير عادي، إذ يؤدي الباب إلى بسطة الدرج التي تؤدي مباشرة إلى المجلس، وليس إلى الصُّفة الموجودة على أحد الجانبين. والمجلس والمؤخر في أحد المنزلين يواجهان الشارع، وجميع الحجرات التي تواجه الطريق العام لها رواشين.

والطابقان الثاني والثالث لهما مساقط متماثلة مقارنة بالطابق الأول. ودورات المياه ليست على بسطة الدرج ولكن في كل طابق، وهذه سمة أخرى من سمات أكثر المباني حداثة.

والطابق الأخير في هذه الدار أيضاً غريب، فالشرفات ليست متقنة، وليس هناك إلا مستوى واحد يمكن استخدامه شرفة سطح أو خارجة. وبئر الدرج في هذا الطابق يقود إلى المبيت وهذا أيضاً يقود إلى الخارجه.

ومعالجة واجهة المبنى تعد مثالية في زمنها؛ فارتفاعات النوافذ موحدة، وإطارات الرواشين غالباً ما تكون ذات إفريز أفقي في كل مستوى، وكل حجرة من الحجرات الأمامية (ثلاث في كل طابق) لها روشان، وهذه مستمرة في الطوابق الثلاثة، والنوافذ الأخرى لها أقواس مسطحة مع سطح الجدار. والمدخل الرئيسي ذو ارتفاع مزدوج وبني كجزء من الروشان المركزي. ومع أن باب الواجهة له ارتفاع مزدوج، فإن مدخل الصالة من الداخل له الارتفاع العادي للطابق.

والأعمال الخشبية من الشرائح المتحركة بسيطة جداً، فالنوافذ المسطحة مقسمة إلى أجزاء. والرواشين مدهشة إلى حد ما في المجموعة التي تقع على اليسار، وهي مقسمة إلى أربعة أجزاء رأسية، والتي في الوسط مقسمة إلى خمسة أجزاء، واليمنى مقسمة إلى ستة أجزاء وكل جزء له شرائح متحركة تنزلق رأسياً. وتوجد أعمال حفر خشبية قليلة، وعموماً فالأعمال الخشبية بدون زينة. وفي هذا المبنى لا توجد أحجار الآجور في شرفة السطح، إذ إنها مجرد حائط عادي.

تصميم المنازل. منذ ثلاثمائة سنة أو أكثر كان لمدخل البيت (الدهليز) أحياناً ارتفاعان. وليس هذا في بيوت أحدث منها. وثمة بعض البيوت ذات سقف مستو. فحجرة الاستقبال (المقعد) على مستوى المقعد وتطل على المدخل.

وكانت أقدم المنازل التي تكون قريبة من المسجد الحرام قد فُتحت كثير من المحلات في أدوارها الأرضية، وقد أثر هذا في التصميم؛ فحين جعلت المحلات جزءاً من المبنى، نقل المقعد (مكان الاستقبال) إلى الموقع المجاور.

في المباني القديمة كان المجلس وحده في الدور الأول، وهو الذي به الروشان المزخرف، وفي الدور الثاني الحجرة الأمامية الرئيسية فوق المجلس وكانت تستعمل حجرة عائلية، وسابقاً كان للمجلس روشان، أما حجرة العائلة فكان في بعض الأحيان لها في الدور الثاني طبقة إضافية على الشباك شيش لتضاعف من عزلة نساء العائلة.

والمدخل الحقيقي (للعزله) كان بعيداً عن السلالم عبر دهليز قصير، وباب الحجرة في البيوت القدمية كان باب المدخل للعزله وبعد مضي ١٥٠ سنة أصبحت العزله أكثر رسمية، ودورة المياه انتقلت من منطقة السلالم لكل دور من الأدوار، وحديثاً أصبحت كل عزلة وحدة مستقلة، وكان لها في

بعض الأحيان أبوابها المستقلة الخاصة بها وتؤدي إلى محتوى وحدات شقة أو وحدة كاملة بدورة مياهها وحجرتين.

والملاحظ في الأبنية المذكورة أن دورات المياه انتقلت من منطقة السلالم حتى صارت داخل الوحدات السكنية (العزله) في ثلاثة القرون المنصرمة، وهذا يدل على أن استخدام دورات المياه نشاط له خصوصيته المتزايدة.

معالجة الواجهات: كان للمباني القدمية قليل من الرواشين وهذه كانت منحوتة بمهارة أكثر من مبان أحدث، وتزايد الطلب على استيراد الخشب من مناطق إنتاجه في الشرق الأقصى في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بسفن الحجاج جعلته أرخص وأسهل مما كان عليه في القرن السابع عشر وما قبله، ويظهر هذا في تصميم الروشان وفي مستوى البناء. والمباني وما يلزمها من الأعمال الخشبية الجميلة الصنع.

ولما أصبح الخشب متوافراً كانت كمية الخشب المستعملة في المباني تتزايد حتى امتدت الرواشين إلى كل ارتفاع في المبنى، ومهما يكن من شيء فقد اندثرت العمالة الفنية، وتغير الروشان من الأعمال الفنية ذات القطع الزخرفية المركبة إلى نحت للزخارف والمنجور، ومن ثم في

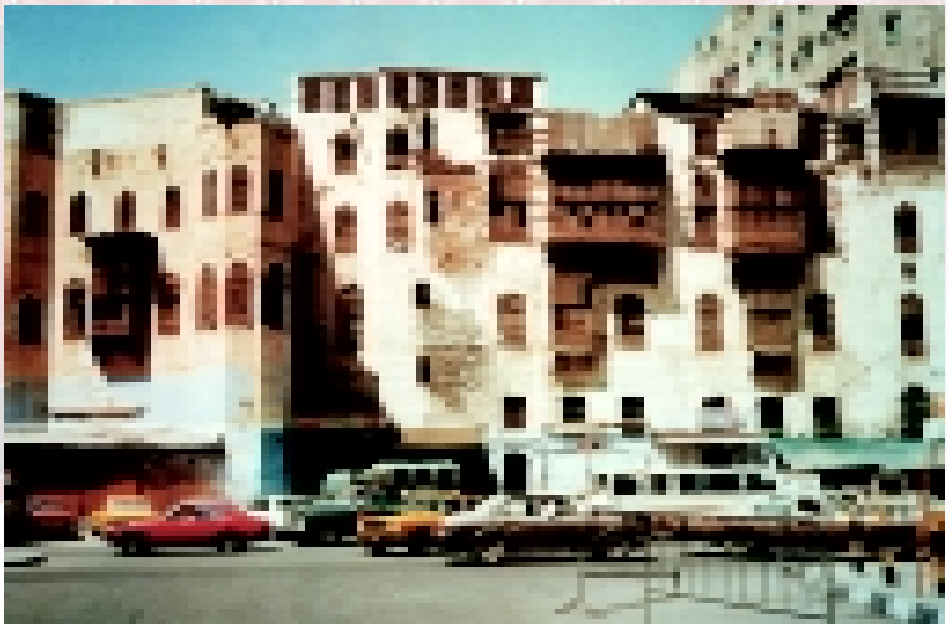

منازل تقليدية في أجياد بمكة المكرمة قليلة الرواشين

الرواشين تشمل كل ارتفاع المبنى بمكة المكرمة

النهاية إلى فتحات التهوية البسيطة ذات الشرائح.

هذه العلاقة بين تزايد استعمال الخشب، وتدهور العمالة الفنية تبين أن الخشب لم يعد سلعة نادرة واستعماله لم يعد لإظهار الثراء كما كان سابقاً إذ إنّ أكثر أصحاب المنازل يمكن أن يستغلّوه في بيوتهم. وأصبحت العمالة الفنية في الوقت نفسه أغلى من ثمن الخشب، ويدل ذلك على تأثير التصنيع المبكر، على سبيل المثال في إنتاج وسائل التهوية بالجملة.

أنماط الواجهات: هناك أشكال عديدة لتنظيم عناصر الواجهات. إن النوافذ المسطحة، سواء كانت بستائر أم بغير ستائر، والنوافذ البارزة (الرواشين/ المشربيات) هما العنصران الأساسيان للواجهات. وحتى نتحاشى سوء الفهم فإن مصطلح الرواشين يستخدم محلياً للإشارة فقط إلى النوافذ البارزة، أما المشربية فقد تكون مسطحة أو بارزة.

إن ترتيب العناصر والنسيج المختلف يكونان ثلاثة أنماط رئيسية للواجهة، ومن خلال هذه الواجهات المختلفة هناك أيضاً أنماط ثانوية.

الواجهة البسيطة، هذا النمط من الواجهات واضح جداً وعناصره بسيطة الترتيب، وتتكون الواجهة البسيطة من نمط أو نمطين من النوافذ (الروشان والشباك المسطح) عند باب المدخل. فالواجهة البسيطة (النمط الفرعي أ) هي واجهة يغطي فيها معظم مساحة الواجهة عموماً من الدور الأول حتى الشرفة. والواجهة البسيطة (النمط الفرعي ب) هي نمطان أو أكثر من النوافذ مع روشان يغطي معظم المساحة على أحد جوانب الواجهة، بينما تشغل النوافذ الجانب الآخر وتتواءم في حجمها مع الغرفة التي وراءها. أما الواجهة البسيطة (النمط

الفرعي جـ) فلها نوعان أو أكثر من فتحات النوافذ، ويغطي الروشان فتحة نافذة واحدة فقط ويتناسب حجمها مع اتساع الغرفة، وفتحات النافذة الأخرى لها واجهة صغيرة ومسطحة، وتدل على وظيفة الغرفة التي خلفها، ومن المهم هنا أن نلاحظ أن الاختلاف الرئيسي بين الواجهة البسيطة (النمط الفرعي ب والنمط الفرعي جـ) أن الرواشين في النمط (جـ) منفصلة بعضها عن بعض والمسافة بين الروشان والآخر يمكن أن تكون ضيقة قدر سمك الحائط بينها وبين الحجرتين المتجاورتين. ويمكن أن يكون دور كامل بينهما، وفي مثل هذه الحالة تستغل المسافة في عمل شباك مسطح. ومن ناحية أخرى فإن الرواشين في الواجهة البسيطة (النمط الفرعي ب) متصلة عمودياً بعضها ببعض، وتشغل جانباً من الواجهة وتمتد من الدور الأرضي إلى أعلى في مسقط واحد.

الواجهة التكرارية، يوجد نوعان أو أكثر من فتحات النوافذ، وعلى هذه الفتحات يوجد روشان وحيد أو نافذة مسطحة، ويتكرر هذا النظام على طول الواجهة بالترتيب نفسه، وهذا النظام من الواجهات له نمطان فرعيان، هما:

واجهة تكرارية فيها أنواع من الرواشين والنوافذ، مع أعمال النورة في الواجهة الغربية للمدرسة الصولتية بحارة الباب في مكة المكرمة

الواجهة التكرارية (النمط الفرعي أ) ولها نوعان أو أكثر من فتحات النوافذ، وعلى الرغم من اختلاف اتساع النوافذ فكل هذه النوافذ مسطحة. ثم الواجهة التكرارية (النمط الفرعي ب) ولها نوعان أو أكثر من فتحات النوافذ التي لها روشان ونوافذ مسطحة ويتكرر هذا النظام على كل الواجهة.

الواجهة ذات التكوين الحر: هذه الواجهة تحتوي على نوعين أو أكثر من فتحات النوافذ، وهذه الفتحات مغطاة بالرواشين والنوافذ المسطحة. وترتيب هذه النوافذ والرواشين لا يلتزم نظاماً محدداً، لكنها تشير إلى مستويات الأدوار في الواجهة الواحدة (لا تلتزم عتبات النوافذ خطاً أفقياً واحداً).

إن توزيع واجهة كل نمط من أمثلتنا سوف توضح الآتي أن الواجهة ذات التكوين الحر هي أقل الأنماط شيوعاً. كما تظهر الواجهة التكرارية في نسبة أعلى. وتوضح أن الواجهة البسيطة هي النمط الأكثر شيوعاً وموزعة بالتساوي خلال المدينة.

والملاحظ أن أقل أنماط الواجهات شيوعاً الواجهة ذات التكوين الحر والواجهات التكرارية وهي من الأعمال الخشبية الغنية بتفصيلاتها، علاوة على

واجهة تكرارية بأحد منازل مكة في أجياد

ذلك فإن هذين النمطين هما في الغالب على أطراف الأحياء القديمة، وكلاهما كانا أصلاً لمساكن الأسر الغنية.

وأقل أنماط الواجهات شيوعاً هي نتاج العمالة المستوردة التي وظفتها أسر غنية معينة، أما النمط البسيط فهو نتاج النجارين المحليين الحاذقين.

واجهات من الطوب (الآجر): إن إحدى المعالجات الشائعة للواجهات في المنازل المكية التقليدية هي أعمال الطوب المعروفة بالآجر. فكانت تسور قمم الأسطح وخارجات المنازل المكية بحيطان

واجهة منزل بمكة مبنية من الطوب (الآجر)

من الطوب تكون أكثر ارتفاعاً من قامة الشخص ولها فتحات على مسافات معينة، وكانت هذه الفتحات تملأ بطوب محروق يوضع على مسافات منتظمة بينها فراغات ينساب الهواء خلالها، ويرش طوب الآجر بالماء من الداخل في الجو الحار الجاف فيهب نسيماً رطباً.

كانت الأسطح والخارجات تستعمل للنوم أثناء الجو الرطب ليلاً، وكذلك تجفف الملابس المغسولة بنشرها على حبال تمتد على الأسطح أو في الخارجة، ولذلك كان من المهم الحفاظ على الخصوصيات العائلية للأفراد بوجه عام والنساء بوجه خاص؛ فكانت مسافات الآجر تحد من الرؤية، إذ يمكن للذين بالداخل أن يروا ما بالخارج وذلك على مدى ضيق أمام الفتحة، وأما أسفل الشارع فهو تحت مستوى الرؤية ولذلك لا يمكن رؤيته. وأما النشاطات على السطح أو في الخارجة فلا يمكن رؤيتها من الخارج.

ومعدل طول الآجر ٢٠سم، ومتوسط العرض ١٠سم والارتفاع ٤سم. يوضع الآجر مسطحاً لكي يمثل طول الطوبة عرض الحائط، وعمق صف الآجر يوضع أولاً يليه الصف الثاني على الأول وهلم جرا. والصفوف الأحادية العدد تنقص طوبة عن الزوجية. والمسافة الأفقية بين الطوب لابد أن تكون خالية من الملاط، هذه المسافة تكون عادة ربع عرض الطوبة وسمك طبقة الملاط التي تمثل المسافة الرأسية بين الطوب وتكون نصف الطوبة ارتفاعاً، وعلى هذا إذا كان الحجم المعياري للطوب مستعملاً فيكون اتساع أي فراغ ٢,٥سم وارتفاعه ٨سم وعمقه ٢٠سم.

وعند بناء صفوف الطوب يُغمس الطرف المهم للطوبة في السوائل ذات اللون المناسب طبقاً لما تتطلبه الزخرفة، وعند إضافة اللون لطرف واحد من الطوبة

سطح أحد البيوت المبنية بالآجر

فسوف يظهر نمط الألوان من الخارج فقط، والألوان التي كانت مستعملة غالباً هي الأزرق والأحمر والأبيض. وكان اللون الأصفر الفاتح، والبنفسجي الفاتح أقل استعمالاً، وبالإضافة إلى عوامل تثبيت اللون استعمل الغراء.

وعندما تصل إلى قمة الزخرفة يبنى سبعة أو تسعة مداميك من الآجر، كانت تبنى لوصل الزخارف بعضها ببعض، وتوصَّل ثلاثاً أو أكثر من الزخارف. وتكوِّن هذه المداميك زخرفة مختلفة عن أكثر الزخارف انخفاضاً وتغطى الفتحات الفردية التي تحتها. والنتيجة النهائية زخرفة جذابة جميلة تميز واجهات المنازل التقليدية المكية، وقد لوحظت زخارف كثيرة من الآجر على منازل مكة التقليدية.

واستعمل الطوب لمدة طويلة عنصراً للبناء في المنازل ويستعمل في كثير من أنحاء العالم. وسطح الطوب المبني به الحوائط يغطى بطبقة من الملاط سميكة. ومنذ القرن العاشر الميلادي وما بعده استخدم الطوب في بعض المناطق عنصر زينة وذلك بتنسيقه وترتيبه في أشكال هندسية، وقد انتشر استخدام الطوب كحلية من وسط آسيا إلى إيران، والأناضول، وبخارى وأجزاء أخرى من

العالم. والـزخارف من الآجر التي قد لوحظـت على واجهات المـنازل المكيـة التقليدية تبدو كمثيلاتها التي استعملت في بعض البلدان الأفريقية، والمدن الهندية وقراها. ولم يـستعمل الآجر فـي مكة كعنـصر جمالي فـقط ولكن كانـت له وظيفتان أخريان فهو يحـفظ خصوصية الخارجه أو السطح، وعندما يرش بالماء يرطب الهواء المار فـيكوِّن نظاماً طبيعياً للتبريد.

عمليـة البناء. إن تنفـيذ فكرة إقامة بيت، كانـت وما زالت، تخضع لعدة اعتـبارات، لعل مـن أهمها إمـكانات صاحب البيت المالية وحاجته للبيت سكناً كانت أم استثماراً أم الاثنين معاً، وكان لـكبـر حجـم الأسـرة وتوافـر فرص الاستثمـار، تأجيراً في موسم الحج أو على الحكومة أثر مـشجع على التشييد المتميز، سعة وشكلاً وتصميماً.

وعندما يبدأ المعلم الخطوة الأولى في مشروع البناء، وهو بمثابة المهندس المعماري اليوم، فإنه قـد يوقف على إمكـانات صاحـب الدار وحاجـته، ويحدد الواجهة مراعياً الشوارع والأزقة والـدور المجاورة واتجـاهات الـرياح وشروق الـشمـس وغروبـها ومـيل الأرض واعتدالهـا. ثم يحدد مواقع المـداخل والـرواشين والـشـبابـيـك والخارجات.

ثم تحـفر السيـسان إلى أن يـبلغوا الصخر أو صـلابة الأرض، ويوسعون في عرضها، ثم تفرش بالمونة المكونة من الطين والنورة والطمي، ثم تردم بالحجارة (الدبش) وهي حجارة جبلية غير مشكلة صناعياً، مختلفة الأحجام، ويكثر الحجر ذو الحجـم الأكبر وتتـخلل المونـة هذه الحجارة التي تـلقى دون تنسيق ما عدا حجارة الأركان، حتى إذا ما بلغ الردم مستوى سطح الأرض قامت الجدران التي تضيق كلما ارتفعت.

ويقتطع من الأرض فناء للبيت، وغالباً ما يكون في الخلف وملاصقاً للمبنى، وهو فناء مساند لمرافق البيت، تقام فيه الولائم أو يكون مـستودعاً، وقد تنصب فيه مظلات أو خيام حين يزداد عـدد الحجاج الـطارئين عـلى المنزل.

وبالنسبة لخامات البنـاء القديمة بمكة فكانت الأحجار، وكات تؤخذ من الجبال المجاورة إما بالتكسير من الجبال بالقادوم والعتلات لرفع الأحجار، وإما باستخدام المفـرقعـات والألغـام، التـي يضعـها اللغمجي وبعد التفجـير يقوم الدمرجي بتهـذيب الأحجار ثم تسـلم بعد ذلك

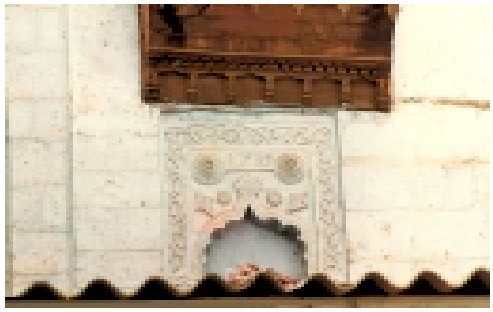

أعمال جصية (نورة) تعود لعام ١٢٤٠هـ بمنزل آل القرع بمكة المكرمة

للقراري، ومن أشهر أحجار جبال مكة: حجر الزراقي، وحجر كرافت، وحجر الشبيكي، وحجر الشميس.

وإلى جانب الأحجار هناك النوره وتستخدم في الترميم والتشطيب، وكانت تخلط بالبطحاني لأعمال الترميمات، أما في حالات التليس فكانت تستخدم بمفردها. وكانت النورة في مكة يتم صنعها في مصانع قرب باب مكة، يتم فيها حرق الأحجار وتكسيرها حتى تصبح مسحوقاً أبيض، وكان الذين يقومون بطلاء الجدران يسمون النوارين (حجازي ١٤٠٩: ٣٦-٤٦).

ولقد استخدم الآجور وهي قوالب الطوب وكانت تصبغ بالألوان (أزرق - أحمر - أبيض)، ويتم صنع الآجور بوضع خليط من الطين وروث البهائم والتراب، ويترك ليتخمر، ثم توضع الخلطة المتخمرة في قوالب خشبية تعرف لدى العامة باسم الشابوره ومقاس طوبة الآجور (٢٠×١٠×٤سم).

ومن أهم الخامات الأخرى التي كانت تستخدم في البناء بمكة الأخشاب وذلك لشد الجدران والسقوف، فكانوا يستخدمون البتر في مساحات معينة من الارتفاعات، والبتر تعني الأخشاب، وكانوا يستخدمون العوارض في أماكن النوافذ، أما في السقف فيستخدمون الأعمدة التي تفرش بعرض السقف، ويستخدمون ألواح من الخشب. ومن

التلبيس بالنورة في منزل آل يماني بحارة الباب بمكة المكرمة

الأخشاب التي كانت تستخدم خشب القندل الذي كان يستورد من الهند، وخشب الدوم، والخسف ويصنع من أوراق جريد النخل.

أما الأدوات التقليدية التي كانت تستخدم في البناء فهي المسحاة لسحب التراب والشاقوف لتهذيب الأحجار وشقفها، والعتله لرفع الأحجار والزنبيل لحمل الأتربة والدمار (الأحجار الصغيرة) والملعقه وهي المسطرين.

كما يستخدم جريد النخل والحلفاء والإذخر والحصر في الأسقف فوق أخشاب العرعر أو الجاوي لمنع تسرب الأتربة من السقف إلى الغرف.

والعقود أو الأقواس تبنى من الحجارة المشكلة لهذا الغرض وتكبر ويزداد بروزها ويتسع العقد كلما ابتعدنا عن إطار الباب، ويستخدم البيكار لوزن استدارة العقد التي تمثل نصف دائرة، ولبناء العقد تمد خشبة مستطيلة عند بداية العقد تمثل قطر الدائرة وتملأ استدارة نصفها بالحجارة يعلوها رمل رطب، ثم ترص الحجارة من طرفي العقد نحو مركزه، وفي هذه النقطة يسقط الغلق، وهو حجر يثبت كل حجارة العقد، وسمي غلقاً لأنه يمسك العقد فيصعب تفكيكه ما لم ينزع الغلق أولاً؛ ثم يزاح اللوح وما فوقه من مونة.

أما تصريف المياه وبخاصة مياه الغسيل والمرحاض فتأخذ طريقها عبر قناة إلى بيارة خارج المبنى، أما الأدوار العليا فيه فتتصل بقناة الصرف عبر قصبات صناعية ساقطة بمحاذاة الجدار، وتبنى جوانب البيارة بالدبش دون لياسة ليسهل تسرب المياه، وتنزح البيارة مرة أو مرتين كل عام عند قدوم الحجيج وبعد رحيلهم، وينزحها نزاحون يجوبون الأحياء مرددين «نزاح.. نزاح».

وكان هناك ما يعرف ببير ياخور وهو بيارة أو مجرى لصرف مياه وفضلات المياه في المنازل المجاورة للحرم، ويمتد تحت المسعى ابتداء من المدعى ناحية المروة وينتهي في المسفلة في بركة، وكان الناس المجاورون لهذا المجرى يصلون دورات مياههم به فلا يحتاجون إلى عمليات النزح، وكلمة بير (بئر) تعني بيارة، أما كلمة ياخور فقيل إنه مهندس تركي ابتكر هذا المجرى، وقيل إن كلمة بير ياخور تركية تعني بيت الخلاء، وعلى أي حال فهو أول مشروع صرف ينشأ في المملكة، بل إن إنشاءه كان قبل عهد الشريف عون الرفيق، وأعيد إصلاحه في حوالي عام ١٣٧٣هـ.

ومن دراسة البيت التقليدي في مكة المكرمة نجد أن تصميم الطابق الأرضي

للبيت المكي يعكس الحاجة للتوفيق بين متطلبات الحجيج الذين يستأجرون الأدوار السفلى أيام الحج وبين خصوصيات ومتطلبات الأسرة التي تسكن في الأدوار العليا.

والطوابق العليا في البيت تحتوي على وحدات (عزله)، أو بتعبير حديث (شقه)، تتكون من ثلاث غرف: مجلس ومؤخر وصُفَّه، وحمام. والمجلس هو أكبر الغرف وهو حجرة استقبال العائلة، ويطل عادة على الشارع من خلال روشان (روشن) أو اثنين أو أكثر. والحجرة الأخرى (المؤخر) كانت بمثابة حجرة المعيشة إذ تقضي العائلة فيها معظم الوقت، ولها نافذة كبيرة وأثاث وسجادة من نوع أقل جودة مما في المجلس. وكانت الوجبات تقدم في المؤخر حيث تفرش سفرة على الأرض في أوقات الوجبات، وتوضع أطباق كبيرة على هذا المفرش. وكان أفراد الأسرة يجلسون حوله ويتناولون طعامهم معاً، وتحفظ أكواب وأواني إعداد القهوة أو الشاي في هذه الحجرة. وأثناء ليالي الشتاء تنام العائلة في هذه الحجرة على مراتب توضع على الأرض، وفي حالة العائلات الكبيرة ينام الوالدان في المجلس والأطفال في المؤخر، وفي الصيف تنام الأسرة على السطح (شرفة السطح) الخارجة المقسمة إلى شرفات.

أما الحجرة الثالثة (الصُّفَّه) فكانت صغيرة عادة، وتحتوي على صندوق الملابس، وهو مصنوع من خشب غالي الثمن محلّى بحلي من النحاس الجميل. وفي هذا الصندوق تحتفظ الأسرة بالملابس والمجوهرات والأشياء الأخرى الغالية الثمن. وكان هناك صندوق آخر أقل جودة من الأول يستعمل لحفظ الملابس أو حفظ الطعام ويسمى سحّاره.

وكانت الصفة توجد بين المجلس والمؤخر، ويتصل المؤخر والمجلس في بعض الأحوال بباب، وفي أحوال أخرى لم تكن هناك فتحات موصلة. ودورة المياه والحمام (بيت الماء) يقعان في واجهة الصفة، وفي كثير من الأحوال يكون كل من الحمام ودورة المياه منفصلين تماماً عن عناصر البيت الأخرى بالسلم أو بقواطع.

وكان الدور العلوي يحتوي على مطبخ العائلة، وحجرة (مبيت) تفتح على شرفة السطح. وكانت العائلة تعد الطعام في المبيت وينام فيه الخدم أيضاً. وكانت مستلزمات المبيت (المراتب، والملاءات والمخدات) تحفظ في هذه الحجرة ليستخدمها أفراد العائلة في الجو الصيفي الحار عندما ينامون في الشرفة (الخارجه).

والدرج هو العنصر الرئيسي للتوزيع في البيت، وللفصل بين أوجه النشاط، وكان الدرج دائماً معزولاً عن الوحدات الأخرى في كل دور، ويوصل إلى مناطق صغيرة تؤدي إلى الحجرات المختلفة، مثل المطبخ، ودورة المياه، والحمام. ويكون الدرج في الجهة الخلفية من المنزل لكي تكون الواجهة متروكة بعيدة عن حجرات المعيشة. وكان الوصول إلى السلالم يبدأ من المدخل الرئيسي وربما بانحناءة صغيرة على شكل الحرفين الإنجليزين L أو Z لكي لا يكون طريق السلم مرئياً من المدخل الرئيسي.

المدينة المنورة

تقع المدينة المنورة على بعد حوالي ٤٢٠كم شمالي مكة المكرمة. وتشغل واحة خصبة تحيط بها الجبال والحرار، وهي محصورة بين حرتين بركانيتين، حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب. وإلى الشمال من المدينة يقع جبل أحد، وفي الجنوب الغربي جبل عير، وفي الشمال الغربي جبل سلع. وعموماً فإن المدينة المنورة تقع على ارتفاع نحو ٦٠٠م فوق سطح البحر.

وتكتنف المدينة ثلاثة أودية هي وادي بطحان ووادي العقيق ووادي قناة. يأتي وادي بطحان من جنوبي المدينة ويمر وسطها، ويعرف هذا الوادي باسم أبو جيده. أما وادي العقيق الذي يزيد طوله على ١٥٠كم فيسمى أعلاه بالنقيع ويسمى بالعقيق في ذي الحليفة. ويأتي وادي قناة من جهة الشرق أي من جهة العاقول، وتتجه أودية المدينة بصفة عامة جهة الشمال الغربي حيث تلتقي في زغابة.

أما مناخ المدينة فهو صحراوي جاف صيفاً، دافىء شتاء. ويزيد متوسط الحرارة العظمى على ثلاثين درجة مئوية، ولا يقل متوسط درجة الحرارة الصغرى السنوي عن عشرين درجة مئوية، وأشد شهور السنة حرارة يوليو وأغسطس وأقلها حرارة ديسمبر ويناير. وتقدر كمية المطر السنوية بنحو ٣٨ملم. وتتعرض المدينة المنورة للعواصف الرملية والرياح المتربة بسبب الجبال التي تحيط بها، ويكون اتجاه الرياح في فصل الربيع وبداية الصيف من جهة الغرب، وفي فصل الشتاء يغلب الاتجاه الشرقي.

التطور الحضري. للمدينة المنورة بضعة وتسعون اسماً من أقدمها يثرب ومن أبرزها: طيبة وطابة، الحبيبة، دار الهجرة، قرية الأنصار، مدينة الرسول، دار الإيمان، حرم رسول الله، دار السنة، سيدة

البلدان، ذات الحرار، آكلة البلدان (السمهودي ١٩٧٢ : ١٥-٢٢). وزاد ابن منظور: المحبّبة والمطيبة والجابرة والمجبورة. وقد استمدت المدينة أهميتها قديماً من وقوعها على طريق التجارة بين اليمن والشام، إذ كانت بمثابة استراحة لقوافل التجارة بين جنوبي الجزيرة العربية والشام. واشتهرت المدينة بنخيلها وبساتينها، وقد سكنتها قبائل من العرب واليهود، مثل قبائل الأوس والخزرج التي جاءت من اليمن، أما القبائل اليهودية مثل بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع فوفدت من الشمال. وكانت يثرب مقسمة إلى عدة دوائر، وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين، يشتمل الأول منهما على الأراضي الزراعية والمساكن، ويشتمل القسم الثاني على الأطم أو الآطام. والأطم هو المبنى المرتفع، أطلقه اليهود على الحصن لأنه كان في إمكانهم إغلاق أبوابه. وكانت الآطام عظيمة الأهمية في يثرب، يأوي إليها النساء والأطفال والعجزة عند هجوم الأعداء، وتستخدم كذلك لحفظ المؤن من حبوب وتمور، كما كانت هناك آبار في كل أطم يستقي منها أهله في حالة حصارهم، وقد ذكر السمهودي أن آطام يثرب كانت تسعة وخمسين أطماً. وكانت هناك صراعات مستمرة وحروب بين الأوس والخزرج حتى جاء النبي ﷺ وعقد الصلح بين هاتين القبيلتين فأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

ولم تكن يثرب قبل سنة ٦٢٢م إلا مجرد مجموعة من مناطق سكنية متفرقة، وبعد هجرة النبي ﷺ بدأت هذه المناطق تتحد لتشكل مدينة واحدة مترابطة، وظلت مناطق السكنى الأصلية محتفظة بأسمائها كمنازل وبيوت لكل قبيلة، ثم اتخذت فيما بعد أشكال أحياء في المدينة. لقد استقر المهاجرون الذين صحبوا النبي ﷺ من مكة، أو الذين وفدوا بعد ذلك، في أراض غير زراعية كانت مهجورة لم تشغلها منازل القبائل الأصلية، أو في أراض وهبها الأنصار للنبي ﷺ، ولقد اتخذت منازل القبائل والعشائر الوافدة حديثاً إلى المدينة المنورة على ما يبدو طابع التكتل بحيث يتجمع أفراد العشيرة أو القبيلة معاً في منطقة واحدة، وينطبق ذلك حتى على المهاجرين الأوائل الذين سكنوا حول مسجد النبي ﷺ مكونين مجاورة سكنية واحدة أو أكثر، وعلى مدى السنوات العشر التي قضاها النبي ﷺ في المدينة المنورة نمت المدينة نمواً كبيراً وظل تنظيم أحيائها قبليّاً في إطار رقعتها المكانية.

ولكي نوضح كيف نمت عملية الاستيطان في المدينة المنورة، يستحسن أن نبدأ بتحديد موقع مسجد النبي ﷺ ومنزله، حيث بركت الناقة وهو على ظهرها فأمر أن يحط رحله وأن يكون هذا المكان منزله. لقد كانت المساحة التي تحيط بموضع بيت النبي ﷺ ومسجده أرضاً فضاء قلما تستغل. ومنذ ذلك الوقت وما تلاه أضحت المنطقة المخصصة للمسجد هي قلب المدينة. ويذكر البلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) أن الأنصار وهبت للنبي ﷺ كل فضل كان في خططها، أي وهبته الأراضي الزائدة التي لا تستخدم (السمهودي ١٩٥٥، ج١: ٢٢٦).

ويورد ياقوت رواية تتعلق بالأراضي التي كان النبي ﷺ يمنحها، مما يعطي انطباعاً بأن النبي ﷺ أخذ على عاتقه المهمة الرئيسية لتوزيع الأراضي وتوطين الناس في المدينة. يقول ياقوت: قدم الرسول ﷺ مهاجراً إلى المدينة فأقطع الناس الدور والرباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخر المسجد، وجعل لعبدالله وعتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهم عند المسجد، وأقطع الزبير بن العوام بقيعاً واسعاً، وجعل لطلحة بن عبيدالله موضع دوره، ولأبي بكر الصديق موضع داره عند المسجد، وأقطع عثمان وخالد بن الوليد والمقداد وغيرهم، مواضع دورهم. وكان رسول الله ﷺ يقطع أصحابه هذه القطائع، فما كان في عفائن الأرض فإنه أقطعهم إياه، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوه له فكان يقطع من ذلك ما شاء.

ويتضح من رواية ابن شبّة لمنازل المهاجرين ومنازل الأنصار أن المدينة المنورة كانت في زمن النبي ﷺ مقسمة إلى أحياء، يقطن أفراد كل قبيلة أو عشيرة واحدة حيّاً واحداً. ولم تذكر رواية منح الإقطاعات أي شيء عن كيفية تقسيم كل قطعة، ومع ذلك يبدو أن التقسيمات الفرعية داخل كل خطة كانت تترك للقبيلة نفسها. وهذا هو ما فعله الزبير في خطته الكبيرة، بقيع الزبير، إذ يعدد لنا ابن شبّة ستاً من الدور في هذه الخطة كانت كلها لورثة الزبير. وفي ثنايا كلام ابن زبالة، عن سوق المدينة خلال حكم هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م) يشير إلى أن بعض المساحات في بقيع ابن الزبير كانت لا تزال في ذلك الوقت أراضي خالية، ويوضح هذا أن كل قبيلة أو عشيرة أو حتى الأفراد كانوا يقسمون خططهم تبعاً لاحتياجاتهم، وأنه ليس بالضرورة أن

تكون كل خطط المدينة قد بنيت خلال الفترة المبكرة.

أما محتوى كل خطة أو حي، فإن ابن شبّة عند تتبعه لأحياء المهاجرين يذكر وجود المساجد في عديد منها. ويروي بكير (توفي ١٢٢هـ- ٧٤٠م) أنه، خلال عهد النبي ﷺ، كان بالمدينة المنورة تسعة مساجد إضافة إلى مسجده عليه الصلاة والسلام، وأن هذه المساجد كانت تقيم الصلاة تبعاً لأذان بلال (الكتاني: ٧٧-٧٨). ووفاقاً لرواية بكير فإن هذه المساجد عرفت بأسماء الأحياء التي تقع فيها. ولما كانت هذه المساجد تقيم الصلاة اعتماداً على سماع أذان بلال فإن ذلك يدل على أن هذه المساجد كانت قريبة من مسجد النبي ﷺ وأنها كانت موجودة في المدينة الأصلية. وأما مقابر كل قبيلة فيبدو أنها كانت قريبة من منازلها وذلك وفاقاً للتقاليد القبلية، ولقد ظل هذا الإجراء متبعاً في المدينة المنورة حتى السنة العاشرة بعد الهجرة (٦٣١م) حين بدىء في تلك السنة باستخدام البقيع (بقيع الغرقد) الذي لا يزال مدفن المدينة ومقبرتها العامة حتى اليوم، ومع ذلك فقد اختارت كل قبيلة بقعة خاصة بها في البقيع تعرفها تدفن فيها موتاها (السمهودي ١٩٥٥، ج٢: ٨٨٨-٨٩٦).

بناء المسجد النبوي الشريف. هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢م وذلك بعد أن تعاهد مع الأنصار على حمايته ونصرة دينه وبايعوه على أن يضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ونصرة دينه في سرهم وعلنهم.

ووصل النبي ﷺ إلى قباء في ٢٨ يونيو سنة ٦٢٢م وظل بقباء بضعة أيام تمكن خلالها من بناء مسجد قباء وهو أول مسجد بني في الإسلام، واتجه النبي ﷺ إلى يثرب التي سماها طيبة وكان راكباً ناقته، وكان يقول للأنصار خلوا سبيلها إنها مأمورة حتى بركت الناقة أمام دار أبي أيوب الأنصاري عند مربد تمر ليتيمين هما سهل وسهيل فقال النبي ﷺ هذا إن شاء الله المنزل ثم أخذ في النزول فقال ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ (المؤمنون: ٢٩) وكان أول عمل عمله أن اختط مسجده الشريف ومنزله في بقعة واحدة انتشرت حولها منازل المهاجرين وسط دور الأنصار (السمهودي ١٣٧٤: ٨٨).

وشارك النبي ﷺ أصحابه في بناء المسجد وكان يقول وهو ينقل الطوب اللبن في ثيابه:

هذا الحِمالُ لا حمال خيبر
هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول:

اللـهـــم إن الأجـر أجـر الآخـره
فـارحـــم الأنـصـار والمـــهـاجـره

وكان المسلمون يقولون:

لـئـن قـعـدنـا والـنـبـي يـعـمـل
ذاك إذا لَـــلْـعَـــمَـــلُ الْمُـضَـــلَّـــلُ

وقد بني المسجد من اللبن والنخيل، ويعد المسجد النبوي الشريف نواة المدينة المنورة حيث نشأت حوله بيوت الصحابة والمسلـمين، وكان هذا المسـجد نموذجاً لعمارة المساجد فيما بعد، وقد استمرت فترة إنشاء المسجد سبعة أشهر، كان النبي ﷺ أثناءهـا يقيم فـي منزل أبي أيـوب الأنصاري، وقد جعل أساس بناء المسجد من الحجر في جوف الأرض بعمق ثلاثة أذرع أي نحو ١,٥ متر تقريباً، أما الحوائط فكـانت مـن الطـوب (اللـبن) بأبـعاد (٥٠×٢٥×١٢,٥سم) تقريـباً، وكانت أبعاد المسجد ٦٠ ذراعاً (٣٠ متراً تقريباً) للعرض، و ٧٠ ذراعاً (٣٥ متراً تقريباً) للطول أي أنه اتخـذ الشكل المستطيل، ولم يكن المسجد أول الأمر مسقوفاً فلما شكا المسلمون الحر غطي المسجد بالجريد والخوص، فلما وكَفَ عليهم (أي تنـزل المطر) غطوه بالطين وجعلوا وسطه رحبة، وكانت الأعمدة التي تحمل الـسقف من جذوع النخل، وقد وضعت عليها الجسور الخشبية، وكان بمؤخرة المسجد الشمالية (صفه) أي ظـلة يأوي إليهـا المهاجرون الذين لا دار لهم ولا مأوى، وكان ارتفاع المسجد أكثر من قامة حوالي ١٨٠سم. وألحق بالمـسجد بيـتان بالجهـة الشرقيـة أحدهما خصص للسيدة سودة بنت زمعة $ والآخر للسيدة عـائشة بنت أبي بكر ٪، وتفيد المصادر التاريخيـة أن الرسول ﷺ كان كلمـا تزوج زوجة أخرى أقام لها بيتاً في جهة المسجـد الشرقية، ومن هنا كانت توسعة المسجد دائماً جهة الغرب والشمال والجنوب. وكانت قبلة المسجد صوب بيت المقدس الذي يقع في فلسطين شمالـي المدينة، وفتح لـلمسجد ثـلاثة أبواب، أحدها في الجهة الشرقية حيث مـساكـن زوجات الـرسـول ﷺ، أما البابـان الآخران فأحدهـما في النـاحية الجنوبية والآخر في الناحية الغربية (وكالة تخطيط المدن د.ت.: ٢٦-٢٨).

كان النـبي ﷺ يجتمـع بالمسلمـين ويـنـاقش معهـم شئونهـم قبل أو بـعد الصـلوات الخمـس التي كـانت تؤدى بالمسجد، أما صلاة الجمعة فكانت تؤدى في مـسجد قبـاء الذي بناه الـنبي ﷺ خارج المدينة جهة الجنوب.

وحينما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بتحويل القبلـة تجاه المسجد

الحرام ﴿فول وجهك شرط المسجد الحرام﴾ (البقرة: ١٤٤)، نفذ الرسول ﷺ أمر ربه، فحول القبلة صوب المسجد الحرام في مكة، وبنيت صفة ثانية جهة الجنوب (رواق يستظل به المسلمون) وحددت القبلة بعلامة على جدار الصفة، وظلت الصُّفة الشمالية يأوي إليها فقراء المسلمين من المهاجرين والأنصار، وسد باب المسجد الجنوبي وأصبح للبناء ثلاثة أبواب جهة الشرق والشمال والغرب.

وفي بداية السنة السابعة من الهجرة بعد عودة النبي ﷺ من غزوة خيبر وسع المسجد لتصبح المساحة عشرة آلاف ذراع تقريباً (١٠٠×١٠٠ ذراع) حيث أصبح المسجد على هيئة مربع، ولم يكن للمسجد محراب أو مئذنة، وكان بلال # يصعد إلى سطح منزل لأسرة بني النجار ليؤذن، وكان منزل بني النجار أعلى المنازل حول المسجد.

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في سنة ١١هـ دفن في حجرة السيدة عائشة $ وقد أقامت حائطاً بينها وبين القبر.

وقد جرت توسعات عديدة للمسجد النبوي على أيدي الخلفاء عبر التاريخ مثل توسعة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والوليد بن عبدالملك والمهدي بن أبي جعفر المنصور والسلطان بيبرس. وكل هذا مفصل في مجلد الآثار.

وتعد عمارة السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٠هـ أول عمارة للمسجد النبوي الشريف في العهد العثماني، وفي سنة ١٢٣٣هـ بنى السلطان محمود الثاني القبة الشريفة محل قبة قايتباي وغطاها بالرصاص وطلاها باللون الأخضر ومنذ ذلك الحين عرفت بالقبة الخضراء، وفي عهد السلطان عبدالمجيد الأول أجريت أكبر عمارة في العصر العثماني استمرت اثني عشر عاماً من سنة ١٢٦٥هـ إلى سنة ١٢٧٧هـ حيث زادت مساحة المسجد النبوي ١٢٩٤ متراً مربعاً لتصبح المساحة الكلية بعد التوسعة ١٠٣٠٣ أمتار مربعة، وأجريت عمليات ترميم شملت إزالة الأسقف الخشبية القديمة وإقامة القباب التي زخرفت بالرسوم الطبيعية، وزينت جدران المسجد بآيات من القرآن الكريم، وأصبح للمسجد أربع مآذن لكل ركن مئذنة.

أما عمارة المسجد النبوي الشريف في العهد السعودي فقد أولى الملك عبدالعزيز يرحمه الله خدمة الحرمين الشريفين أهمية كبيرة، وحينما رأى كثيراً من الناس يصلون خارج مبنى المسجد النبوي في الطرقات والممرات المجاورة لامتلاء المسجد وكثرة المسلمين، أمر

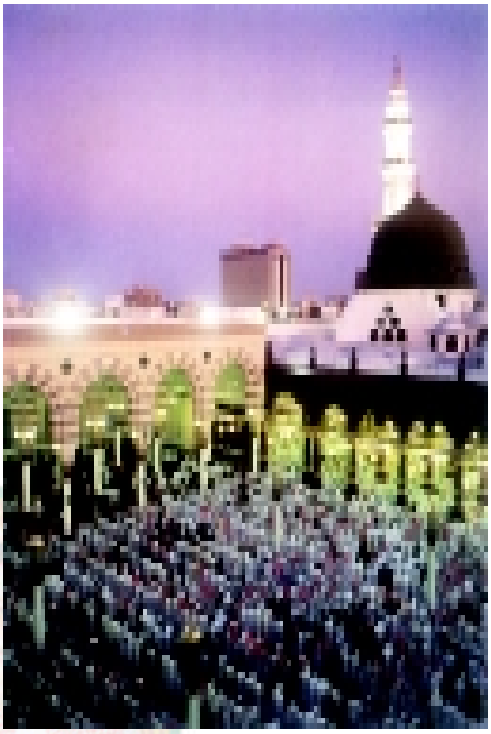

المسجد النبوي في العهد السعودي

منارات المسجد النبوي في التوسعة السعودية

بتوسعة المسجد النبوي الشريف سنة ١٣٧٠هـ الموافق يوليو سنة ١٩٥١م واستمرت أعمال التوسعة أربعة أعوام، وتناولت التوسعة السعودية القسم الشمالي من المسجد، وبلغت ٦٢٢٤ متراً وبذلك أصبحت مساحة المسجد بعد التوسعة الأولى (١٦٣٢٧) متراً مسطحاً. وفاقت توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز التي وضع حجر أساسها في يوم الجمعة ٥ صفر عام ١٤٠٥هـ (٢٩ أكتوبر سنة ١٩٨٤م) كل توسعة شهدها مسجد الرسول ﷺ.

وتتضمن هذه التوسعة إضافة مبنى جديد إلى مبنى المسجد الحالي يحيط به ويتصل من الشمال والشرق والغرب ومساحته ٨٢٠٠٠م٢ وبذلك أصبحت المساحة الكلية للدور الأرضي من المسجد ٩٨٥٠٠ متر مسطح. وتوسعة خادم الحرمين الشريفين ما نسبته ٨,٣٪ من مساحة المسجد النبوي الشريف، ويستفاد كذلك من سطح التوسعة بمساحة تقدر بنحو ٦٧٠٠٠م٢ وبذلك أصبحت المساحة الإجمالية للمسجد النبوي الشريف (١٦٥٥٠٠م٢) تستوعب

٢٥٧٠٠٠ مصل (وزارة الإعلام د.ت.: ٢٦-٣٠).

العناصر العمرانية. تمتاز المدينة المنورة بوجود عدد كبير من المساجد والأسواق والأربطة والأسوار والبوابات والدور والعيون والأفلاج والحصون والحمامات والأسبلة ووسائل تصريف المياه.

المساجد: مسجد قباء أول مساجد المسلمين؛ وصفه القرآن الكريم في سورة التوبة بأنه أول مسجد أسس على التقوى، وقد بناه النبي ﷺ سنة ٦٢٢م ويقع على بعد ٣كم جنوبي المدينة المنورة. وقد جُدد بناؤه عدة مرات في عهد عمر بن الخطاب #، وفي عهد الوليد بن عبد الملك، وفي عهد أبي جعفر المنصور، وفي عهد الملك فيصل سنة ١٣٨٨هـ، وآخرها في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.

مسجد قباء بالمدينة المنورة

أما مسجد القبلتين فهو المسجد الذي حولت فيه القبلة إلى المسجد الحرام بمكة، ويقع هذا المسجد شمال غربي المدينة المنورة على حافة وادي العقيق في الجهة الشمالية من الحرة الغربية. وقد أعيد بناؤه في عهد خادم الحرمين الشريفين.

ويقع مسجد الفتح في مكان الخندق الذي بناه المسلمون قبل أن تدور أحداث غزوة الخندق، ويعرف هذا المسجد كذلك بمسجد الأحزاب، وقد أعيد بناء هذا المسجد أيضاً في عهد خادم الحرمين الشريفين.

ويقع مسجد الجمعة بين قباء والمدينة حيث صلى النبي ﷺ أول جمعة في ذلك المكان حينما أدركه وقتها. ويسمى ذلك المكان وادي رانوناء، وقد امتد إليه عمران المدينة الآن (المدينة المنورة وأول بلدية في الإسلام ١٤٠٠: ١٠٩-١١٤).

أما مسجد الإجابة ففي شمالي البقيع - وترجع التسمية إلى أن الرسول ﷺ دعا ربه ثلاث دعوات: أن لا يهلك أمته بالغرق ولا بالسَّنَة (أي الجفاف) و أن لا يجعل بأسهم بينهم، فاستجاب له دعوتين

ومنعه الثالثة الأخيرة (السمهودي ١٩٥٥، ج٣: ٨٢٩).

ومسجد ذي الحُليفة جهة آبار علي، ويسمى كذلك مسجد الشجرة، وهو ميقات أهل المدينة لحجهم. ويعرف لدى كثير من الناس بمسجد الإحرام.

ومن المساجد الأخرى مسجد أبي ذر ويسمى كذلك مسجد السجدة، لأن النبي ﷺ سجد مكانه سجدة طويلة، ويسمى أيضاً مسجد طريق السافلة (الخياري ١٩٦٢: ١٢٦)، ومسجد الفضيخ، (الفضيخ هو عصير العنب أو نقيع التمر). سمي المسجد بهذه التسمية لأن بعض الصحابة كانوا يشربون الفضيخ فيه فجاءهم من أبلغهم نزول تحريم الخمر فأهرقوا ما كان معهم. وهذا المسجد شرقي العوالي، وقد صلى النبي ﷺ في مكانه ست ليال عند حصاره ليهود بني النضير. والمسجد، كما وصفه الخياري، رواق مسقوف ومقبب، وله عقود محكمة البناء وخلفه رحبة واسعة غير مسقوفة (١٩٦٢: ١٢٣). ومسجد المصلى أو مسجد الغمامة حيث كان النبي ﷺ يصلي العيدين. وأبعاد هذا المسجد (١٣م×٢٦م) وهو الآن مسقوف بقبة كبيرة يعلوها هلال وأربع قباب صغيرة بيضاء، وله منارة تركية الطراز تنتهي بمخروط.

مسجد الغمامة بالمدينة المنورة

وهناك سبعة مساجد تعرف بمساجد الفتح، وهذه المساجد مكان موقعة الأحزاب التي دارت بين المسلمين وكفار قريش وحلفائهم سنة ٥هـ (٦٢٧م). وستة من هذه المساجد غربي جبل سلع، أما السابع وهو مسجد الراية فعلى قمة جبل دُبَاب. وهذه المساجد السبعة هي: مسجد أبي بكر الصديق، ومسجد عمر بن الخطاب، ومسجد علي بن أبي طالب، ومسجد الفتح، ومسجد سلمان الفارسي، ومسجد فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، ومسجد الراية (المدينة المنورة وأول بلدية في الإسلام ١٤٠٠: ١١٨-١١٩).

مسجد أبي بكر الصديق بالمدينة المنورة

المكتبات: نظراً لأن المدينة المنورة كانت موئل العلم منذ عهد الرسول الكريم وخلفائه الراشدين فقد كثرت فيها المكتبات، ومن أشهرها وأهمها دار ومكتبة عارف حكمت وتنسب إلى عارف حكمت، وهو أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت (١٢٠٠هـ-١٢٧٥هـ/ ١٧٨٥م-١٨٥٨م). وينتهي نسبه إلى بيت النبوة من نسل الحسين، إذ اشتهر باسم عارف حكمت الحسيني (الزركلي ١٤٠٠، ج١: ١٤١). وقد شغل عارف حكمت مناصب عديدة، منها قاضي القدس، ثم قاضي مصر، فقاضي المدينة المنورة.

وتولى أحمد عارف حكمت مشيخة الإسلام في إسطنبول سنة ١٢٦٢هـ واستمر سبعة أعوام ونصف إلى أن توفي بالأستانة. له أشعار بالعربية والتركية والفارسية، وله كتاب بالعربية سماه الأحكام المرعية في الأراضي الأميرية، وله مجموعة تراجم لعلماء القرن الثالث عشر. على أن شهرته الواسعة ترجع أساساً إلى خزانة الكتب التي أسسها عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٢م. وتضم هذه المكتبة ٦٣٢٥ عنواناً، ويصل عدد المخطوطات بها إلى ٥٩٣٥ مخطوطة، وعدد مقاعد المكتبة ٣٠ مقعداً.

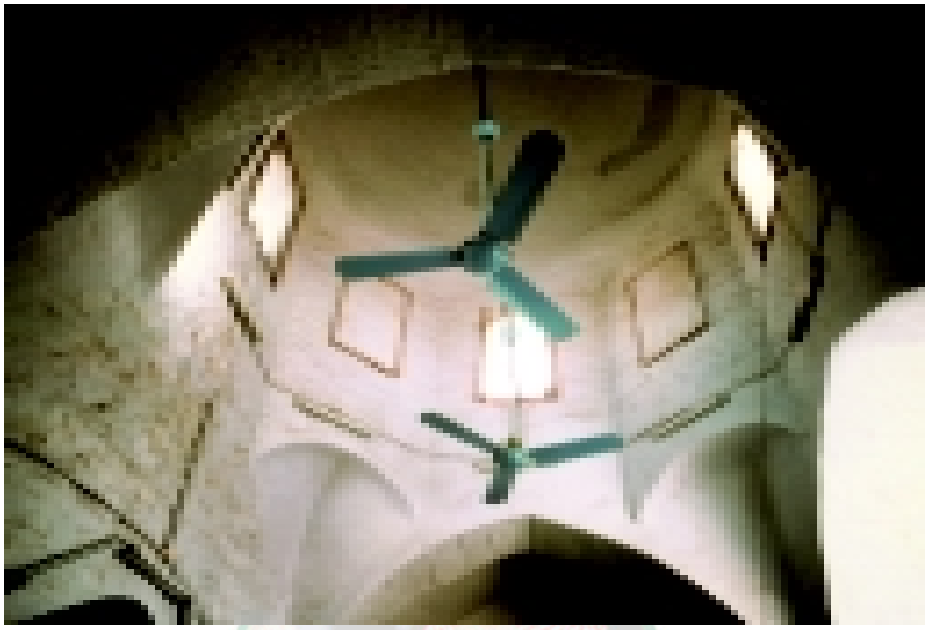

مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة

وتتناول المخطوطات شتى العلوم والفنون، وبعض المخطوطات نادرة، وهي مكتوبة بالعربية والفارسية والتركية. وقد ذكر محمد كرد علي منذ أكثر من ٨٥ عاماً أن بمكتبة عارف حكمت عشرة آلاف مجلد (المقتبس ١٣٣٠، ع٧: ٧٦٣).

ووصف لبيب البتنوني (المتوفى سنة ١٣٥٧هـ) مكتبة عارف حكمت في كتابه الرحلة الحجازية، فقال: «وفي المدينة كتبخانات كثيرة أحسنها كتبخانة شيخ الإسلام عارف حكمت، وهي قريبة من باب جبريل جهة القبلة، وهذه الكتبخانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي الفاخر، وفي وسط حوشها نافورة من الرخام، فيها حنفيات للوضوء، وفيها كتب ثمينة جداً لا يقل عددها عن ٥٤٠٤ (البتنوني ١٣٢٩: ٢٥٤).

جاد مؤسس هذه المكتبة عارف حكمت بجزء من ثروته لجمع المخطوطات، كما أنه أوقف عليها كثيراً من البيوت والدكاكين والخانات والبساتين لصيانتها والصرف على موظفيها وذلك في إسطنبول وفي المدينة المنورة (الألوسي ١٤٠٣: ٣١-٣٩).

ومبنى المكتبة إلى الجنوب الشرقي من مسجد الرسول (عليه الصلاة

والسلام) بنحو ١٩م. وأدى هذا الموقع الممتاز إلى شهرة هذه المكتبة ذات المظهر المعماري الجميل، إذ يفد المسلمون من أقطار عديدة لزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام. ولا شك أن المكتبات الأخرى القريبة من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت معروفة، وعلى سبيل المثال، كانت مكتبة المحمدية قريبة من المسجد على الجانب الغربي.

ويحد مبنى المكتبة من الشمال الشارع الرئيسي الذي يفصلها عن المسجد، ويحدها من الشرق شارع ثانوي يؤدي إلى حارة الأغوات، ومن الجنوب والغرب تجاورها المباني. ومبنى المكتبة صغير المساحة، إذ إن المباني تغطي حوالي ٣٧٧م^{٢}، وتضم المكتبة منزل أمين المكتبة الذي يشغل جزءاً من الطابق الثاني. ومساحة المكتبة تقدر بنحو ٣١٥م^{٢} وتتكون من الصالة الرئيسية للقراءة، وصالتين أخريين لرفوف الكتب. والصالة الرئيسية على هيئة مستطيل طوله ٩م وعرضه ٨م، وتضم المخطوطات النفيسة والكتب المحفوظة في دواليب خشبية، أما الصالتان الأخريان فأبعاد الأولى ٣م×٢,٨م، والثانية ٤,٣م×٥,٦م وهما تستخدمان للقراءة ولحفظ الكتب (شكل).

ويصل مدخل المكتبة الرئيسي إلى الصالة من الجانب الشرقي. ويتوافر في الصالة الضوء الطبيعي والتهوية للمكتبة وللمنزل. ولصالة مظلات من جانبين تظلّل المدخل الرئيسي للصالة الرئيسية. وللمنزل مدخلان أحدهما يفتح مباشرة على الشارع والآخر يؤدي إلى الفناء، الذي تبلغ مساحته ٦٢م^{٢}. وهو من حجرتين صغيرتين كان القصد من إنشائهما أن يكونا للاستقبال، ودورتين للمياه تحت السلم. وتغطي المكتبة معظم الدور العلوي ما عدا قمة الصالة وهي على هيئة قبة.

أما الخدمات المختلفة (المطبخ- الحمام- السلالم) فهي متجاورة وتتوافر فيها الإضاءة والتهوية من صالة صغيرة (٣م×٣,٢م). والمطبخ بالقرب من السلم ويخدم الطابق الأرضي والأول. والدور الأول يطابق الدور الأرضي، وهو مبني على حوائط حاملة.

وفي الطابق العلوي من مبنى مكتبة عارف حكمت غرفتان، إحداهما ذات روشان كبير بارز يطل على الشارع الرئيسي، وكانت تستخدم حجرة استقبال، أما الغرفة الأخرى فكانت أقل مساحة وتستخدم غرفة خاصة. وبين هاتين الغرفتين غرفة صغيرة كانت تستخدم لنوم الأطفال، أما الصالة الطويلة

التي كانت تربط هذه الغرفة بالسلم فكانت تستخدم للجلوس ولتناول الطعام.

ويوصل السلم إلى الشرفة العلوية، ولها حمام، وكانت هذه الشرفة تستخدم للنوم في فصل الصيف. وعند قمة السلم مساحة مظللة تستخدم لوضع مراتب النوم أثناء النهار، والشرفة العلوية مقسمة إلى أجزاء توفيراً للخصوصية.

الحارات والأحواش: فقد اتسم النمط العمراني التقليدي للمدينة المنورة بخاصيتين من حيث التركيب، إحداهما نظام الحارة، والأخرى نظام الأحواش الذي يميز عمرانها. ويتمثل الفرق بين النظامين في أن نظام الحارة يتكون من شارع رئيسي يطلق عليه اسم الحارة وتتفرع منه طرقات ثانوية تصطف على جنباتها المساكن، ونظام الأحواش من شارع رئيسي مماثل للحارة تتفرع منه فتحات، وهي بوابات تفضي إلى فراغ مفتوح تحيط به المساكن من جميع الجهات. وحيث إن نمط الأحواش هو الذي ساد التركيب العمراني فسوف نلقي الضوء على ذلك النمط التخطيطي بشيء من التفصيل.

إن من أوائل الذين كتبوا بإسهاب عن الأحواش علي بن موسى في عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، إذ وصف أبواب المدينة والطرق الموصلة للحرم النبوي وأهم البيوت والأبنية والأحواش التي يمر بها الأعراب والأغراب في طريقهم إليه. وقد حصر في رسالته خمسة وعشرين حوشاً، مبيناً سعتها ومواقعها وما بها من بيوت (ابن موسى ١٣٩٢: ٣٧-٤٢).

وممن كتب عن الأحواش من المعاصرين محمد حسين زيدان الذي ذكر أن سبب بناء الأحواش هو الخوف من هجمات الأعراب. وقد صنف زيدان الأحواش إلى فئتين، إحداهما داخل السور، والأخرى خارجه (١٤٠٨: ٢١-٢٤).

ويرجع تاريخ الأحواش الكائنة داخل السور القديم، مثل حوش التركي، إلى ما قبل عام ٩٦٨هـ. ويبدو أن أغلب الأحواش التي ورد ذكرها في القرن العاشر الهجري كانت تعرف بأسماء أشخاص مثل الشيخ أحمد المالكي وعبد الباسط البركاتي وعبد المعطي وشهاب الدين. وربما نسبت هذه الأحواش إلى هؤلاء الأشخاص في بداية تأسيسها لملكيتهم للأرض التي بنيت عليها الأحواش، أو أنهم أول من بنى فيها، وقد تغيرت أسماؤها فيما بعد إلى الأسماء المعروفة اليوم. ويرى عبد

الله فـرج الخزرجي أن ازدياد الـهجرة للمدينة بعد تولي الدولة العثمانية حكم مصر والحجاز في عام ٩٢٥هـ أدى إلى الحاجة للبناء خارج السور وإلى عرضها بيع الأراضي لـلراغبين في شراء قطـع أراضٍ للبناء عليها، وبنيت تلك الأراضي على شكل أحواش، وأطلق عليها أسماء ملاك الأراضي الـقدامى، مثل حوش كربـاش، وحوش خيـر الله، وزقـاق جعفر، وحوش القايد، وحوش اللكيع (الخزرجي ١٩٩١ : ٥٢).

ويسـتنـتج من اسـتعراض أسـماء الأحواش أنـها تعود لأسـماء عائـلات شهيـرة، أو لفئة مـن الناس، أو لمهـنة معينة، أو لشكل الحوش. وتتصف هذه الأسماء بأنها بسيطة في تركيبها، إذ إن أغلبها من كلمة واحدة مما جعلها سهلة التداول. وقـد ساعد هذا فـي تعريف سكان المدينة المنورة على أرجائها المختلفة والوصول إليها بسهولة.

أما خصائص الأحواش وتخطيطها، فإن الحـوش فراغ مـفتـوح مخـصص لاستخدام أهالي المنازل المطلة عليه، وهي تشكل مـحيطه. ويتصل الحوش بـبقية أجزاء المدينة عن طريق بوابة تغـلق ليلاً وفي أوقات اختلال الأمن. وهناك عدد محدود من الأحواش التي لها أكثر من مدخل. وتتكون البوابة من سقيفة معقودة يستخدم أعلاها لأحد المساكن المجاورة.

وتختلف الأحواش من حيث المساحة وعدد البيوت. ويصـل أكبر حوش من حيث المساحة إلى ٨٧٠٠م٢ ومن حيث عدد البيوت إلى ٧٤ بيتاً. وبالمقابل تصل مساحة أصـغر حوش إلى ٥٠م٢ وعدد البيوت يصل إلى ثمانية. وتختلف مساحة الأحواش حسب قربها من الحرم النبوي الشريف إذ تـصغر المساحة كـلما قرب الحوش من الحرم. لذلك تبدو الأحواش التي تـقع داخل السور الـقديم صغيرة المساحة وقليلة البيوت.

إن دراسـة العـلاقة بـين مـساحـة الأحواش وعدد البيوت فيهـا تمكننا من تصنيف الأحواش حـسب حجمها إلى ثلاث فئات؛ هي الأحواض التي لا تزيد مساحتها عن ٨م والأحواش الصغيرة التي لا تزيد مساحتها على ١٠٠٠م٢ ولا يزيد عدد بيوتها على ٢٥ بيتاً، وتشكل النسبة الكبيرة من الأحواش، وتبلغ نسبتها ٦٦٪ من مجموع مساحة الأحواش. وأحواش لا تزيد مسـاحة أكبرها علـى ٤٧٣٠م٢ باستثناء حوش الراعي الذي تصل مساحته إلى ٨٧٠٠م٢.

من هنـا نستنتـج أن صغر مساحـة الحوش يحد من الـنشاطات التي يمكن

للسكان ممارستها فيه، كما أن كبر المساحة الزائد على الحد يتسبب في تباعد المساكن بعضها عن بعض مما يقلل من فرص التلاقي والتعارف بين السكان. فإذا أخذنا مثلاً الأحواش التي تزيد مساحتها على ٣٠٠٠م٢ مثل حوش خميس، وحوش السيد، وحوش أبو ذراع، وحوش الراعي، وحوش الجديد، وحوش المغربي، وحوش أغا المستسلم، وحوش الصعيدية، فإنها أحواش واسعة تتباعد أطرافها بعضها عن بعض مما يتعذر معه بناء علاقات اجتماعية بين السكان. وبالمقابل نجد أن الأحواش الصغيرة التي تتخذ شكل الاستطالة مثل حوش أبو جنب الذي يشبه الزقاق يتعذر فيه ممارسة أي نشاط اجتماعي أو ترفيهي.

ومن الظواهر التي تجدر الإشارة إليها عملية البناء داخل فراغ الحوش في فترة لاحقة من تكوينه حيث برزت هذه الظاهرة في الأحواش الكبيرة، مثل حوش الراعي، وحوش عميرة، وحوش التاجوري، وحوش التاجورية. ولعل أحد أهم أسباب تلك الظاهرة الحاجة الماسة لبناء بيوت جديدة لا تتسع لها رقعة المدينة المحصورة داخل الأسوار. ونتيجة لهذا التوسع فقدت هذه الأحواش خاصية الفراغ المفتوح

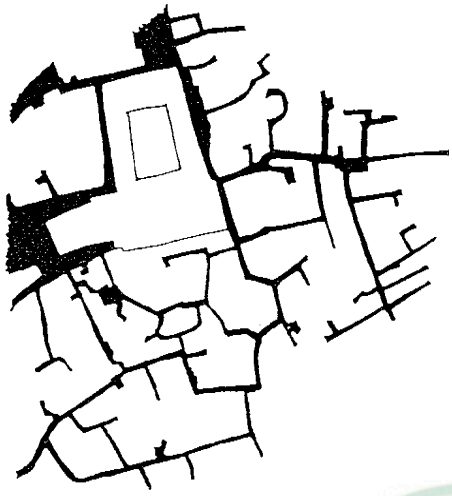

نظام الحارة (حارة الأغوات)

وتحولت إلى أزقة ضيقة لا تتسع للنشاطات الإنسانية التي تتوافر في الأحواش الأخرى. وربما كان أحد أسباب هذه الظاهرة هو كون الأحواش ملكاً مشاعاً لجميع سكان الحوش دون أي سيطرة لأحد منهم عليه.

وقد كان لاستخدام الأحواش ميزة أساسية هي رفع كفاءة استخدام الأراضي إذا ما قورن بالأنماط الأخرى لنظم الحركة والمسارات، مثل قصر الشوارع والمسافات بين أجزاء المدينة، والاقتصاد في تكاليف الخدمات ووسائل النظافة، واعتناء الأهالي بمظهر الحوش مما يخفف من مسؤوليات السلطات المحلية، والتوفير في مساحة الأراضي المخصصة للسكنى، إذ يقوم الحوش المفتوح مقام الحدائق

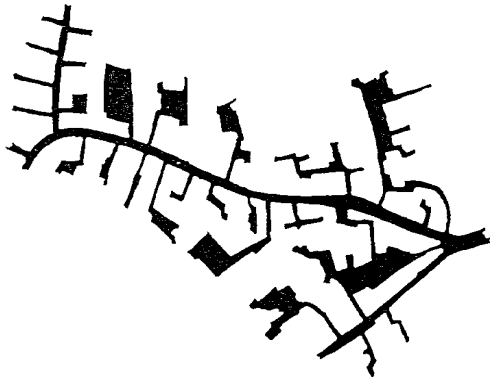

نظام الأحواش (زقاق الطيار)

والأحواش الخاصة التي تلحق عادة بالبيوت في المناطق الأخرى.

أمّا الخصائص الاجتماعية والأمنية للأحواش فإن التشكيل الفراغي للحوش قد أسهم في إيجاد روابط اجتماعية قوية بين السكان، لاشتراكهم في استخدام الفراغ المفتوح والتقائهم وتقابلهم فيه أثناء خروجهم ودخولهم إليه. وقد هيأ الحوش للسكان إمكانية استخدام المساحة أمام المنزل في الجلوس مساء ودعوة الجيران والأصدقاء مما يزيد الروابط بينهم. وعادة ما تختار النساء ركناً منعزلاً داخل الحوش لجلوسهن، وكذلك يلتقي الأولاد في بقعة معينة من الحوش للتحدث والتسامر، فالحوش إذن ساحة التقاء عامة للرجال والنساء والأولاد.

وكثيراً ما استخدم الحوش للمناسبات مثل حفلات الزواج والأعياد، حيث تفرش منطقة منه لجلوس الرجال، وتخصص إحدى الزوايا للطبخ وإعداد الطعام، ويبقى الوسط للرقصات الشعبية. وللأطفال النصيب الوافر من الحوش في قضاء أوقات ممتعة في اللعب.

ولما كان الأهالي يشتركون في استخدام هذه المساحة المحدودة من الحوش التي تفتح وتطل عليها مساكنهم، فإن ذلك قد دفعهم إلى الاهتمام بساحة الحوش من حيث النظافة وكفاءة الاستخدام الذي لا يؤثر على الآخرين، ويضمن بقاءها صالحة للاستخدام في أي وقت. ولا بد أن العرف قد جرى بين السكان على تنظيم استخدام الأحواش. والعرف بمثابة اتفاق غير مكتوب يتوارثونه جيلاً بعد جيل، مما يحد من سوء استخدام الحوش وتحويله لأغراض شخصية كبناء الورش والمتاجر فيه، أو وضع الأخشاب والأشياء الكبيرة التي قد تعيق الحركة وتمنع الاستخدام الأمثل للحوش. ولا شك أن أهم الدوافع التي ساعدت سكان الحوش على الالتزام بقيود وحدود معينة هو الحفاظ على العلاقات الاجتماعية وحقوق الجوار المستمدة من الشريعة الإسلامية.

يشكل الحوش نظاماً أمنياً فريداً، إذ تحيط البيوت بالساحة الداخلية مشكلة فراغاً

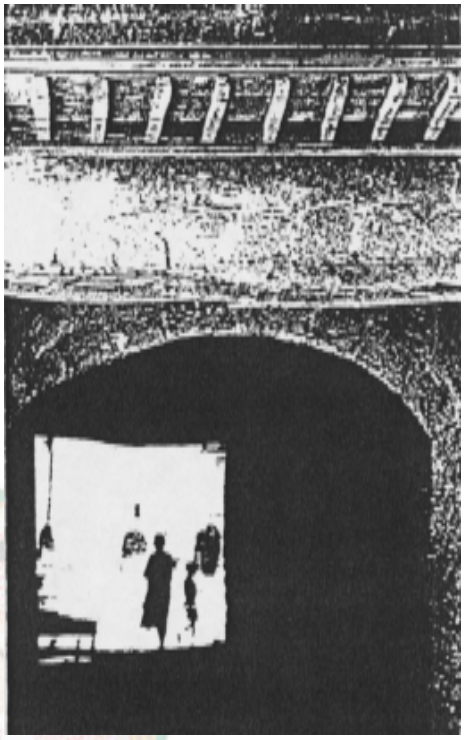

بوابة حوش التركي من الخارج

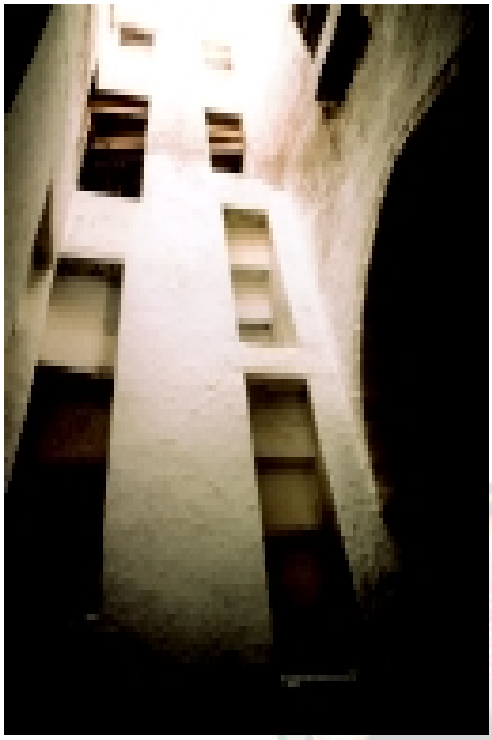

جزء من واجهة أحد المنازل بأحواش المدينة

محمياً يتم التحكم في مدخله كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وبالنظر إلى الحوش كعنصر أمني ضمن تكوين المدينة المنورة نجد أن هناك تدرجاً واضحاً في ترتيب العناصر الدفاعية الموفرة للحماية تتمثل في سور المدينة المنيع الذي يحيط بجميع الأحياء ويوفر لها الحماية الكاملة من هجمات الأعداء. وبوابة الحوش التي تحمي مجموعة من البيوت وتكون أكثر أمناً من البيوت الأخرى التي تقع خارج الحوش. ومقدمة البيت ذات البناء المنيع، وتزود فتحاتها بالقضبان الحديدية للحماية.

ونستنتج من التركيب العمراني للحوش أن الطمأنينة لدى سكانه تتوافر نتيجة للتحكم في مدخل الحوش وغلقه في ساعات الليل لحمايته من دخول الأشرار. وتجنب الأغراب دخول الحوش إلا في حالة زيارة أحد السكان. وقد لوحظ أن الصبيان كانوا وسائل إنذار مبكر وكانوا ينبهون الأغراب بأنهم أخطأوا الاتجاه عند دخولهم الحوش. كما يساعد الحوش على الألفة والتعارف بين الجيران مما يطمئنهم على عائلاتهم أثناء غيابهم.

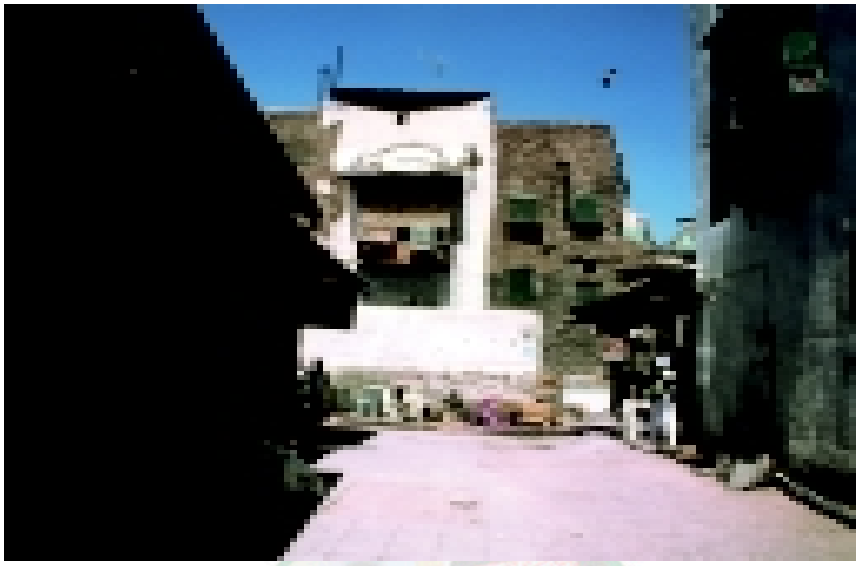

إحدى الساحات في حوش من أحواش المدينة

ويشكل التكوين العمراني لأغلب الأحواش فراغاً فسيحاً يشعر السكان بالانشراح وسعة الصدر إذا ما قورن بالشوارع الحديثة التي تعج بحركة السيارات وترتفع مبانيها شاهقة تحجب ضوء الشمس والهواء وتشكل في أغلب المدن بيئة ملوثة غير صالحة للسكنى. كما أن فراغ الحوش الفسيح المتباعد الجوانب يسمح بإطلالة جديدة لواجهات المنازل، إذ يتمكن السكان من رؤية معظم أجزاء الحوش من خلف الرواشين. وبتباعد واجهات المنازل عن بعضها تتوافر الخصوصية داخل المساكن ويتجنب الكشف الحاصل عن تقابل وتقارب المنازل كما هو شائع في الحارات.

نماذج من الأحواش: يصعب وصف جميع الأحواش التي كانت بالمدينة المنورة لكثرة عددها وازالة أجزاء كبيرة منها. لذلك نقتصر هنا على وصف خمسة عشر حوشاً هي التي أمكن تصويرها وجمع المعلومات عنها وفيما يلي وصف مختصر لكل حوش منها:

١) حوش خميس. أول حوش يقع في الجهة اليمنى من بداية شارع باب الكومة، وله مدخلان أحدهما رئيسي يصل الحوش من الجنوب بشارع باب الكومة والآخر يصله بحوش القشاش من الشمال. ويتصف شكل الحوش بالاستطالة مع انبعاج في ركنه الشمالي الشرقي وبروز في الكتلة المبنية في الركن الشمالي الغربي،

وأغلب من كان يسكن هذا الحوش من محدودي الدخل، وتبدو مساكنه متواضعة ذات دور أو دورين على الأكثر.

٢) حوش القشاش. يجاور حوش خميس من الشمال ويتصل معه بممر مسقوف جزئياً. كما أن له مدخلاً آخر من الجهة الغربية يصله بحوش صغير يسمى بذنيب كلب. يتصف الحوش بأنه منتظم الشكل يقرب من المربع وفي أركانه ممرات مسدودة توصل إلى البيوت الداخلية التي لا تطل مباشرة على الحوش. يشبه وضع هذا الحوش حوش خميس من ناحية مستوى دخل السكان وحالة المساكن.

٣) حوش قرة باش (وينطق كرباش). يقع في منطقة زقاق الطيار بالقرب من المناخة، وله ثلاثة أبواب يفتح أحدها مباشرة على المناخة والآخران في بداية زقاق الطيار. يتصف الحوش بالشكل المربع في جزئه الشمالي وبالاستطالة في وسطه ويضيق في نهايته الموصلة إلى زقاق الطيار. ويدل مظهر المباني ذات الثلاثة طوابق على أن سكان الحوش من الفئة الموسرة حيث تغطي الرواشين معظم أجزاء واجهات البيوت.

٤) حوش ميرمة. حوش صغير في المنطقة التي بين السيح وباب العنبرية وله مدخلان أحدهما يفضي إلى السيح مباشرة والآخر يوصل إلى زقاق السلطان المتصل بشارع باب العنبرية. يتصف شكل الحوش بالاستطالة مع انتظام الأضلاع، ويتكون من البيوت المتواضعة التي لا تتجاوز دورين وهي ذات فتحات بسيطة.

٥) حوش المغاربة. يقع مقابل حوش ميرمة من جهة الغرب ويفصل بينهما زقاق السلطان. وهو حوش مستطيل الشكل يشبه تشكيله الفراغي الزقاق مع اتساع في جهته الشمالية، وتتصف بيوت الحوش بنمط معماري متميز حيث تغطي الرواشين المزخرفة واجهاتها ويعلو الطوب الفخاري الملون ستر الأسطح فيها.

٦) حوش أبوذراع. يقع في أعلى شارع باب العنبرية من جهة الغرب ويتصف بالرحابة والسعة والشكل المربع مع انتظام أضلاعه، وله باب واحد يصله بشارع باب العنبرية. وتدل أشكال البيوت فيه على الحالة الاقتصادية المتوسطة للسكان، وتظهر واجهات البيوت الحجرية على طبيعتها، كما تغطي الرواشين بعض بيوت الحوش.

٧) حوش الراعي. مجاور لحوش أبوذراع من جهة الغرب، وهو آخر حوش يقع على نهاية شارع العنبرية من الجهة الغربية. يفصل مبنى التكية المصرية

الحوش عن شارع العنبرية، وتطل واجهة المبنى الشمالية على الحوش. ويعتبر هذا الحوش أكبر أحواش المدينة المنورة من حيث المساحة وعدد البيوت، وقد جرى تغير كبير على فراغه المفتوح بعدما شغل وسطه بالبيوت وضاعت معالمه كحوش. وتشابه بيوته بيوت حوش أبوذراع من حيث المستوى وإظهار مواد البناء على طبيعتها في الواجهات.

٨) حوش أبوجنب. حوش صغير مقابل لحوش أبوذراع في الجهة الجنوبية لشارع العنبرية ويأتي بعد حوش الجوهري على يمين الداخل من باب العنبرية، ويتصف الحوش بالاستطالة حيث يشبه فراغه الطريق المسدود. ويظهر تخطيطه تجانساً في البيوت والمعالجات المعمارية للواجهات التي تغطيها الرواشين، كما تقتصر ارتفاعات المباني فيه على دورين.

٩) حوش عميرة. يقع في الركن المحصور بين شارع العنبرية والسيح، ويحده من الشمال حوش الخياري ومن الجنوب حوش مناع وله مدخل واحد يفتح مباشرة على السيح. لقد تأثر فراغ الحوش بالبناء داخله كما حدث في حوش الراعي حيث قسمت البيوت المستحدثة الحوش إلى أجزاء صغيرة. يستخدم فراغ الحوش في الوقت الحاضر كمواقف للسيارات لقربه من منطقة السوق، وتتصف بيوت الحوش بالبساطة وترتفع إلى دورين.

١٠) حوش مناع. يقع جنوب حوش عميرة ويفتح مباشرة على السيح. ويتصف بأنه مستطيل ومنتظم الأضلاع ما عدا ضلعه الشرقي الذي يميل بزاوية محدداً الاتجاه نحو البوابة، وقد حلت البنايات الحديثة محل معظم البيوت القديمة واستخدم الدور السفلي منها متاجر لقرب الحوش من المركز التجاري. تتصف البيوت القديمة الباقية بجودة البناء وفخامة الرواشين التي تغطي الواجهات ذات الأدوار الثلاثة.

١١) حوش منصور. يقع الحوش في جنوب ميدان المناخة ويشتهر بموقعه المتوسط وقربه من السوق. وللحوش مدخل واحد يفتح مباشرة على المناخة. يقرب فراغه من الشكل المربع، وقد غيرت امتدادات البيوت داخل الحوش من انتظام أضلاعه. وتبين الصور أن معظم بيوته القديمة استبدلت بها مباني خرسانية حديثة. وقد كان لقرب هذا الحوش من السوق تأثير على استخدام المباني حيث استخدمت الأدوار الأرضية متاجر، وتشير واجهات البيوت القديمة المتبقية إلى أن أصحابها كانوا من فئة الموسرين.

١٢) حوش التاجورية. يقع في الجهة الجنوبية من المدينة على شارع الجديدة الذي يبدأ من نهاية ميدان المناخة. يتصف تشكيله الفراغي بأنه مربع، وقد بنيت في وسطه مجموعة من البيوت مع بقائه محتفظاً بوضعه الأصلي. للحوش باب واحد يفتح على طريق فرعي يتفرع من شارع الجديدة، وبيوته ذات مستوى متوسط حيث تغطي الرواشين الصغيرة أجزاء من الواجهات، ويصل ارتفاع بعض البيوت إلى ثلاثة أدوار.

١٣) حوش التاجوري. يقع شمال حوش التاجورية وله باب واحد يفتح مباشرة على شارع الجديدة. كان فراغه الأصلي قريباً من شبه المنحرف، ثم تجزأ إلى جزأين شمالي وجنوبي بعد البناء في وسطه. وبه بعض المباني الفخمة ذات الرواشين العريضة، وإلى جانبها بعض البيوت المتواضعة.

١٤) حوش الأشراف. يقع في بداية درب الجنايز من جهة المناخة وله مدخل واحد يفضي مباشرة إلى المناخة، ويقرب شكل فراغه من المستطيل المنتظم الأضلاع، ولقرب هذا الحوش من السوق تحولت جميع بيوته القديمة إلى مبان حديثة متعددة الأدوار.

١٥) حوش الخازندار. حوش صغير يقع شرق حوش المسيوفي وله مدخل واحد يفتح مباشرة على درب الجنايز، ويتصف الحوش بالاستطالة وضيق فراغه المفتوح. وتتصف بيوته بالبساطة مع وجود بعض المتاجر فيه لقربه من مركز المدينة.

الأسواق: ضمت المدينة المنورة قبل الإسلام عدداً من الأسواق المتفرقة في الأحياء، ومن أهم أسواق المدينة سوق بني قينقاع. ويعود تاريخ سوق المدينة، الذي أطلق عليه فيما بعد المناخة، إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى عمر بن شبة عن عطاء بن يسار، قال: لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل للمدينة سوقاً أتى سوق بني قينقاع ثم جاء سوق المدينة فضرب برجله، وقال: هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج، وفي رواية فلا ينقص منه ويضرب عليه خراج (السمهودي ١٩٥٥، ج٢: ٧٤٧). ومساحة السوق كبيرة إذ ذكر ابن زبالة بأن عرضها (يقصد بذلك طولها) ما بين المصلى إلى جرار سعد، قرب ثنية الوداع (السمهودي ١٩٥٥، ج٢: ٧٤٨) وهذا يتعدى حدود المناخة التي تنتهي عند حافة القلعة الجنوبية الشرقية. كما يذكر السمهودي بأن قبر مالك بن سنان الخدري، رضي الله عنه، يقع عند الذين

يبيعون العبي في طرف الخياطين عند أحجار الزيت. وتمتد سوق أصحاب العباءات من مشهد مالك وتنتهي عند باب المصري، فصار ما يلي الشمال سوق القفاصين، وما يلي الجنوب سوق الشروق (العياشي ١٩٧٢: ٢٠٤).

تتكون أسواق المدينة بشكل عام من قسمين، أحدهما يقع في جنوب شرقي المناخة خارج السور القديم، والآخر يسمى سويقة، ويقع داخل السور بدءاً من باب المصري وانتهاء بالحرم النبوي عند بابي السلام والرحمة. وتعد هاتان السوقان امتداداً لبعضهما حيث لا يفصل بينهما سوى باب المصري الذي كان يغلق في أوقات معينة وأثناء ساعات الليل، خصوصاً قبل بناء السور الخارجي. وبعد فتح شارع العينية، من قبل حاكم المدينة فخري باشا، اتصلت منطقة الحرم بالمناخة وتكونت على جانبيه سوق جديدة.

وقد تعرضت سوق المدينة لاعتداءات في فترات مختلفة، أهمها ما سمي بدار هشام بن عبد الملك، حيث أشار عليه إبراهيم بن هشام بن إسماعيل واليه على المدينة بإحاطة السوق بسور ضم جميع مساحته وسد به جميع الدور المحيطة به، وبنى داخله بيوتاً تتكون من حوانيت في الأسفل وغرف في العلو تؤجر، وقد هدمها الأهالي بعد موت هشام بن عبد الملك مباشرة (السمهودي ١٩٥٥، ج٢: ٧٥٠). أما الحادثة الأخرى فهي ما كان من السلطان مراد الثالث، عندما علم بشكوى قاضي المدينة المنورة وشيخ الحرم عمر أفندي الموجهة إلى ديوان مصر في عام ١٠٠٥هـ بشأن الميدان الكائن خارج الباب المصري بأنه كان مزبلة وتلالاً من قديم الزمان، وقد سبق أن صرف عليه السلطان سليمان القانوني مبالغ باهظة لتنظيفه وتسويته ثم وقفه لنزول الحجاج. وبناء على ذلك وجه السلطان مراد في مذكرته بعدم التعرض لهذه الأرض وتوعد من يعتدي عليها بالتنكيل (الحصين ١٤١٢: ١).

وقد كان هناك التزام منذ قرون طويلة بألا يقام في المناخة بناء ثابت، حتى إن مكونات السوق الأساسية من متاجر كانت مبنية على شكل عشش وصناديق بحيث يسهل إزالتها، فبقيت المناخة سوقاً عامة ومناخاً لجمال الحجيج. وقد استند الامتناع عن البناء في المناخة إلى أمر كان قد أصدره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب # بعدم البناء فيها وجعلها وقفاً للمسلمين (زيدان ١٤٠٨: ١٩).

واكتسبت المناخة اسمها من إناخة الإبل ويوضح ذلك البتنوني بقوله إن

فيما بين السورين فسحة كبيرة يقال لها المناخة، لأن أغلب الحجاج ينيخون جمالهم فيها ويقيمون بها مدة الزيارة، وفيها مقام ركي المحمل المصري مدة وجوده بالمدينة (البتنوني ١٣٢٩ : ٣٤٤). وشوارع المناخة كانت ضيقة ومتعرجة ومتداخلة، وقد هدمها فخري باشا في الحرب العالمية الأولى، ثم جاءت الحكومة الهاشمية فبنت عليها أكواخاً من الصفيح ظلت حتى أوائل عهد الحكومة السعودية فأعيدت إلى ذويها وبنيت بناية عادية (مجلة العرب، ع٩/ ١٩٦٧ : ١٥٩).

أما سوق الفلتية فهو ساحة مفتوحة مستطيلة الشكل مخصصة لبيع الخبط (نوع من ورق الشجر يستخدم علفاً) والدباغ والحبال والفحم والحطب، وتبلغ مساحتها ٤٧٠٠م٢. وتعد جزءاً من السوق حيث تحيط بها المتاجر من الجهة الشرقية والشمالية، ويحدها مسجد الغمامة من الغرب ومبنى الشرطة (الخالدية) من الجنوب.

أما منطقة خان الجزارين فهي ساحة يتوسطها خان الجزارين، وتبلغ مساحتها ٤٦٠٠م٢، وتعد بمثابة حلقة الوصل بين أجزاء المناخة والطريق الموصل إلى درب الجنايز جنوب الحرم). وتتصل مباشرة بسوق الفلتية الذي يحدها شمالاً، ومن الشرق يحدها شارع درب الجنايز وحوش الشريف شاهين، ومن الجنوب منطقة سكنية، ومن الغرب مبنى الشرطة واللاسلكي.

أما ساحة نهاية المناخة فعندها تنتهي المناخة وتضيق نحو الجنوب حتى تنتهي بطريق الجديدة، وتبلغ مساحتها ١١٨٠٠م٢.

أشهر أسواق المدينة: سوق المناخة الذي يتكون من سبعة عشر سوقاً أورد منها علي بن موسى أحد عشر سوقاً ويمكن إيجاز أهم ملامحها كما يلي:

- سوق الحبابة (باب المصري) وهو أكبر هذه الأسواق ويتكون من صفين من المتاجر.
- سوق العياشة يباع فيه الخبز بجميع أنواعه ويقع على اليمين مباشرة للخارج من باب المصري بمحاذاة السور.
- سوق التمارة ويقع في الصف القبلي من سوق الحبابة.
- سوق السمانة والرواسة بما فيه من القهاوي يقع قبلي سوق التمارة.
- سوق السمكرية ويقع في شارع السيدة فاطمة ويتركز بائعو العسل والسمن في الجانب الجنوبي منه.
- سوق الفلتية يباع فيه الخبط (نوع من ورق الشجر) والدباغ والحبال والفحم والحطب ويقع في الساحة المفتوحة جنوبي السوق.

- سوق الخضرية يقع شرقي الأسواق المذكورة وفي جانبه القبلي مباسط الجزارين.
- سوق العطارة والقماشة وبائعو الدخان يقع شرق سوق الخضرية.
- سوق الفخارة والبياطرة والنحاسين.
- سوق البرسيم ويقع بقربه حراج الغنم.
- سوق الفطايرية والطباخين.
- سوق الخردجية والدلالين.
- سوق القفاصة.
- سوق الخياطين.
- سوق العينية.
- سوق الشروق.
- سويقة.

ويتبين من أسماء الأسواق السالفة الذكر أنها تضم أهم المأكولات والمجلوبات من البادية والمنتجات المتنوعة المحلية والمستوردة. أما الملابس والعطور والمجوهرات والكتب وغيرها من البضائع فكانت تباع في السوق الداخلي المسمى بسويقة وبالقرب من الحرم النبوي الشريف.

الأربطة: شهد بناء الأربطة في المدينة المنورة نشاطاً ملموساً منذ بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). والغرض الأساسي من بناء الأربطة أن تكون سكناً للغرباء وطلبة العلم والفقراء؛ لأن أصحاب هذه الأربطة أوقفوها لهذه الأغراض ولأغراض أخرى، مثل خدمة فقراء المسلمين وإقامتهم بها خلال موسم الحج والزيارة. ومن أشهر هذه الأربطة رباط عثمان بن عفان (مالكي ١٤٠٣: ١٥٥-١٥٨). وقد أنشىء هذا الرباط سنة ٤٢٣هـ حينما بادرت مجموعة من التجار المغاربة بشراء إحدى الدور التي تنسب لعثمان بن عفان # وأوقفوها على طلبة العلم من بلاد المغرب الذين يقيمون في المدينة. وتمت توسعة هذا الرباط وخصصت غرفة منه لتكون مكتبة، وقد ضمت هذه المكتبة مجموعة من أنفس كتب الفقه المالكي، وقد أهديت هذه المكتبة إلى مكتبة الحرم النبوي الشريف في نهاية القرن الثاني عشر الهجري (الأنصاري، ١٩٧٣م: ٥٤).

وهناك رباط الناصر لدين الله العباسي، وقد بني هذا الرباط سنة ٥٧٠هـ بالمدينة المنورة ليكون مأوى للغرباء وسكناً لطلبة العلم، ويقع هذا الرباط عند باب النساء قرب الحرم النبوي الشريف (مالكي ١٤٠٣: ١٥٦). أما رباط المراغي فيقع عند باب السلام وقد أقيم سنة ٥٧١هـ. وأوقفه قاضي القضاة أبو بكر بن عبدالله

مبنى أحد الأربطة بحارة الأغوات بالمدينة المنورة

المراغي لسكن الحجاج من عرب وعجم أثناء فترة زيارة المدينة.

وقد بنى التجار البخاريون عدة أربطة في المدينة، أشهرها عند باب الرحمة، وأوقفوا هذه الأربطة لتكون سكناً للمجاورين والغرباء المنقطعين في المدينة المنورة.

وهناك مجموعة من الأربطة، منها رباط الزنجبيلي سنة ٥٧٩هـ، ورباط الأصفهاني، ورباط خالد بن الوليد ويقع في داري خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وكانتا متجاورتين، وقد اشتراهما تجار غزنة سنة ٦٢٠هـ وجعلوهما داراً واحدة، وسمي هذا الرباط فيما بعد برباط السبيل، ورباط مظهر الأحمدي، ورباط ياقوت المارداني (مالكي ١٤٠٣: ١٥٨).

الأسوار: عرفت المدينة المنورة الأسوار والبوابات، فقد كان للمدينة سوران أحدهما داخلي وهو الأقدم ويحيط بمنطقة الحرم والحارات القديمة، مثل حارة الأغوات وذروان والساحة. ويعود تاريخ بناء أول سور للمدينة المنورة إلى عام ٢٦٣هـ. بناه أميرها إسحاق بن محمد الجعدي. ثم بنى عضد الدولة المنصور بن بويه سوراً حول المدينة في عام ٥٤٠هـ. ولما كثر البناء خارج السور أمر السلطان نور الدين زنكي ببناء سور

في عام ٥٥٨هـ يحيط بالمناطق الجديدة، ثم جُدد في عهد الملك الصالح بن قلاوون عام ٧٥٥هـ (البتنوني ١٣٢٩ : ٢٥٤). وبنى السلطان سليمان بن سليم العثماني أشهر سور للمدينة في عام ٩٣٩هـ. وجدده السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٥هـ. أما السور الخارجي فقد بناه محمد علي باشا بأمر السلطان محمود عام ١٢٢٠هـ (مجلة العرب ١٩٦٧م، ع٩ : ٥٥) حيث أحاط بالبيوت التي امتدت خارج السور الداخلي، وهي منطقة باب الكومة وزقاق الطيار وشارع العنبرية ومنطقة درب الجنايز، وهي المناطق التي كانت تنتشر فيها الأحواش.

يمتد السور القديم على طول الجانب الشرقي من المناخة حيث يبدأ جنوباً من بداية درب الجنايز متجهاً شمالاً حتى يصل إلى المنطقة التي أمام مدخل حارة الساحة، ثم ينعطف تجاه الغرب منتهياً في الركن الجنوبي الشرقي للقلعة. ويفصل هذا السور المناخة عن الجزء القديم من المدينة، ويوجد به منفذان يؤديان للحرم ولداخل المدينة هما باب المصري والباب الصغير. فأما باب المصري ففي الجزء الجنوبي منه، وأما الباب الصغير فعند نهاية السور والتصاقه بالقلعة. ولم يكن هناك سور خارجي يحيط بالمناخة والبيوت التي بنيت في جهتها الغربية حتى عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) عندما بني سور خارجي في عهد محمد علي باشا والي مصر (ابن موسى ١٣٩٢ : ٥٥).

وكان للسور الداخلي ثلاثة أبواب تؤدي إلى المناخة، اثنان من خارج المدينة أحدهما الباب الشامي الذي أحدثه السلطان سليمان القانوني عند بنائه للسور والقلعة في عام ٩٣٩هـ (١٥٣١م)، والثاني باب الكومة ويعرف بباب الجبل (أي جبل سلع). أما الباب الثالث الذي بين المناخة والمنطقة المحصورة أمام القلعة داخل باب الشامي ويسمى الباب الصغير فقد أحدثه السلطان عبد المجيد عندما شرع في بناء الحرم وتجديده سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥١م).

وعلى الباب الصغير دائرة الحكومة والخزانة الديوانية وغرفة التحريرات ومحل المحافظ ومجلس الإدارة ومجلس الضابط المباشر للأحكام. وللسور الداخلي باب يسمى الباب المصري في منطقة ما يسمى بالبلاط الأعظم (الطريق المفروش بالحجر) الذي يصل بين باب السلام ومسجد المصلى، ويبلغ طوله ألف ذراع (ابن موسى ١٣٩٢ : ٧-٨).

وكانت هناك قلعة تسمى قلعة باب الشامي أو القلعة السلطانية، وقد بنيت

من الحجر على جبل سليع الذي يعد امتداداً لجبل سلع. وقد بنى أمير المدينة شيحة حصنه قبل سنة ٦٧٠هـ (١٢٧١م) ليتحصن به ويكشف منه نواحي المدينة (العياشي ١٣٩٢ : ٥٥٢). وبنى السلطان سليمان سالف الذكر القلعة السلطانية التي تشتمل على جملة من المساكن والحجرات لسكن الضباط والجنود، وعلى أماكن المدافع، وعلى منهلين أحدهما من العين الزرقاء والآخر من العين المالحة، وخزان مبني على الجبل، وحديقة صغيرة، وإسطبل لحيوانات المدافع، ومحل حداد للآلات، وفي وسطها صهريج لحفظ قذائف المدافع والبارود (ابن موسى ١٣٩٢ : ٤٨). كما أضاف علي حافظ بأن القلعة تشتمل على مسجد عند الباب، ومستودعات للذخيرة، والحبس المسمى بالكبير (١٩٨٤ : ٥٢).

تجمع القلعة بين النهاية الشمالية الغربية للسور القديم والسور الجديد. ويقع باب القلعة في الجهة الشرقية قبالة السلطانية بين برجين عاليين، يليها إلى الجنوب باب الحبس. ويجتمع حول القلعة في ركنها الجنوبي الشرقي السجن

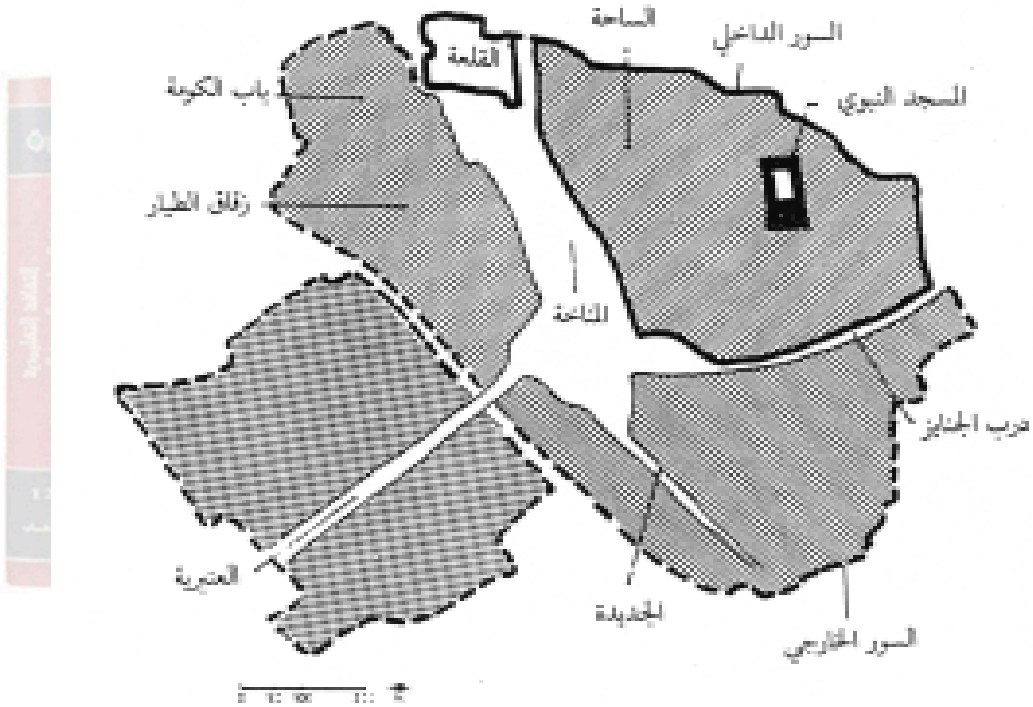

الكتل العمرانية الرئيسية والأسوار بالمدينة المنورة

ومركز البريد الذي كان من قبل مطبعة للدولة العثمانية، وكان فوقه مقر المجلس العرفي العسكري (العياشي ١٣٩٢ : ٥٥٢). وتتصف القلعة بمتانة بنائها ومناعة أسوارها وأبراجها.

وعرفت المدينة مراكز الشرطة والحراسة، وكانت توجد في كل باب من أبواب السور الخارجي والداخلي، كما توجد ثلاثة منها في المناخة هي الخالدية والسبيل والخاسكية (ابن موسى ١٣٩٢ : ٥٥). ومن أشهرها مركز باب الشامي الذي يقع على يسار الداخل من الباب.

الأسبلة والحمامات: الأسبلة جمع سبيل، وهو المكان المخصص لماء الشرب يرتوي منه المارة. وفي المدينة عدد كبير منها موزعة في أنحائها، وقد بنى هذه الأسبلة أهل الخير، وغالباً ما توضع في واجهة البيت، وتخصص فتحة صغيرة بجانبها إناء للشرب مربوط بسلسلة معدنية بحيث يتمكن الشارب من إدخال المغراف من خلال الفتحة ويغرف من خزان صغير مبني من الحجر، ولايوجد منها اليوم سبيل قائم.

وكان بالمدينة المنورة عدد من الحمامات لم يبق منها إلا (حمام طيبة) في حارة ذروان. ويرجع تاريخ هذا الحمام إلى السلطان سليمان في القرن العاشر الهجري. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (١٢٥٤هـ) تم

سقف أحد الحمامات بالمدينة المنورة

تجديده في عهد السلطان محمود، وهو مبني من حجر البازلت. ويضم المبنى مشلحاً (ومكان لخلع الملابس) وهو صالة مربعة الشكل عليها قبة، أما بيت الحرارة فيتم الوصول إليه من خلال مدخل منكسر، على يمينه دورات مياه. ويغطي بيت الحرارة قبة كبيرة وقباب كروية صغيرة بها فتحات زجاجية.

وتنفرد المدينة المنورة كذلك بالحمامات التركية وبمجرى لتصريف مياهها ومياه دورات المياه المحيطة بالحرم النبوي الشريف، ويمتد هذا المجرى من وسط المدينة حتى يفيض في أسفل المدينة عبر مجرى معد لهذا الغرض.

التكايا وسكة حديد الحجاز: كان بالمدينة المنورة عدد لا بأس به من التكايا (ملاجىء للفقراء)، تهدم معظمها بمرور الوقت، وظلت منها ثماني تكايا بالمدينة المنورة حتى بداية هذا القرن. وآخر التكايا التي بقيت بالمدينة المنورة وأشهرها هي التكية المصرية بشارع العنبرية، وكانت من طابق واحد مستطيل يطل داخلياً على حوش ذي أروقة مسقوفة.

ويعد إنشاء الخط الحديدي الحجازي من أبرز أحداث العهد التركي في المدينة المنورة وقد فرغ من إنشاء هذا الخط سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، وكان يربط المدينة المنورة بإسطنبول في تركيا، ودمشق

التكية المصرية في المدينة المنورة ويظهر المعمار التركي المصري في القباب والأعمدة

بالمدينة المنورة. وظل هذا الخط يعمل بين دمشق والمدينة المنورة لمدة تسعة أعوام، وقد أثر كثيراً في ازدهار المدينة المنورة ونموها عمرانياً، وقد دُمرت أجزاء كثيرة منه سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).

البيت التقليدي. كانت بيوت المدينة المنورة تشابه إلى حد كبير البيوت السورية والمصرية في عهد المماليك والعثمانيين، من حيث توزيع الغرف واستخداماتها وأسمائها وطرق بناء البيت. ويرجع سبب هذا التشابه إلى وفود الجاليات من تلك البلاد إلى المدينة خصوصاً أثناء الحكم العثماني. وقد لفتت هذه الملحوظة انتباه عدد من الرحالة الذين زاروا المدينة ووصفوا هذه البيوت.

زار بوركهارت المدينة المنورة سنة ١٨١٥م وترك لنا أقدم خريطة دقيقة للمدينة المنورة، ويظهر بهذه الخريطة سور السلطان سليمان وكذلك السور الخارجي الذي أقيم بالجهة الغربية والجنوبية، وهو سور بني كثير من أجزائه بالطوب اللبن. وقد ذكر بوركهارت أن مساكن الحكام كانت في الضاحية الغربية على الطريق الرئيسي (طريق العنبرية) وأن مساكن غالبية الناس كانت عبارة عن مجموعات من المباني ذات الطابق الواحد أو الطابقين وتتجمع هذه المباني حول أحواش كبيرة، ويقيم بكل حوش نحو أربعين عائلة وتفصل المباني عن بعضها حدائق النخيل، أما الحارات فكانت ضيقة يتراوح عرضها ما بين ٢م إلى ٣م، وكانت المباني العامة نحو ١٠٨ أربطة، و ٢١ سبيلاً، و ٨ تكايا و ٤ وكالات و ١٨ مخبزاً و ٩٣٢ حانوتاً، و ٣٦ مقهى، إلى جانب قلعة وثكنة للجنود للدفاع، أما عدد البساتين في داخل المدينة فبلغ ٤٨٥ بستاناً.

وقد زار موريتز المدينة سنة ١٩١٤م وقال إنها تتكون من جزءين، المدينة

الأزقة الضيقة والبيوت المتلاصقة في حارات المدينة المنورة القديمة

القديمة، والمدينة الجديدة بالجهة الغربية منها، ويفصلهما ميدان المناخة ويبلغ عرضه حوالي ٤٠٠م، وقد قدر عدد سكان المدينة المنورة سنة ١٩١٤م قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة بنحو ٨٠ ألفاً. وفي سنة ١٩٢٥م حينما زار المدينة الرحالة روتر أشار إلى أن عدد السكان تدنى إلى ٦٠٠٠ نسمة فقط، وذكر أن أقدم منطقة هي حارة الأغوات وبها أزقة وبيوت متلاصقة.

وفي العصر العثماني بنيت بعض المساجد مثل مسجد الغمامة سنة ١٨٣٩م ومسجد العنبرية سنة ١٩٠٩م، وقد بنيت هذه المساجد بحجر البازلت البركاني.

وتميزت العمارة العثمانية بتأثرها بالأساليب الأوروبية ويظهر ذلك واضحاً فيما يتعلق بالزخرفة وكذلك الرسومات الموجودة داخل القباب.

وغالباً ما يقسم البيت المدني إلى أربع وحدات هي: القاعة، الديوان، الدرج، وحدة الوظائف المتعددة (المطبخ- المجلس- الدهليز- الدكة- بيت الماء- المخزن- الصفة- المؤخر). وفيما يلي تحديد مواضع الوحدات ووصفها.

تستخدم القاعة حجرة استقبال رئيسية، وتقسم إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأوسط (الجلا) ويمتد إلى السقف وهو محمي بغطاء متحرك، وهذا الغطاء يتم

استخدام الحجارة البازلتية في بناء المنازل بالمدينة المنورة

التحكم فيه من الطابق الأرضي بالحبال. والجزءان الآخران على الجانب لهما سقف عال وسقف منخفض مع اختلاف في مستوى الأرضية يتناسب مع طول الإنسان. ويرتفعان كذلك درجة ليحددا المكان الذي تخلع فيه الأحذية.

وفي المدينة تنخفض درجة الحرارة خلال الليل ويهبط الهواء البارد إلى الجلا وينساب إلى الغرف التي تحيط بها فيبرِّد الجدران والأرضيات، ويصل إلى القاعة من خلال الجزء الأوسط.

والقاعة عادة تكون غرفة كبيرة (٣ إلى ٣,٥م عرضاً، ٩ إلى ١٠م طولاً) وتستوعب عدداً كبيراً من الضيوف. ولا يوجد شباك للقاعة، وتستمد القاعة الضوء من الجزء الأعلى من الجزء الأوسط (الجلا).

والقاعة عادة وسط المنزل، تحيط بها الحجرات التي تحميها من الإشعاع الحراري من الخارج. وخلال الصيف تستخدم القاعة للمعيشة لبرودتها نسبياً.

وفي القاعة ست كوات على الأقل في الحوائط، وتقسم إلى ثلاثة أو أربعة أرفف خشبية، ويستخدمها المقيمون بوضع الأشياء الشخصية، مثل الكتب والزهريات. وأرضية القاعة مملوءة بالأحجار، خصوصاً الأجزاء الوسطى التي تصبح باردة في الصيف.

فتحة الجلا بسطح أحد البيوت بالمدينة المنورة

أما غرفة الديوان فتشابه القاعة، ولها جزءان جانبيان، أحد الجانبين يغطى بالسقف المنخفض وفوقه الحجرة. والجزء الثاني ليس له غطاء ومفتوح إلى السقف. ومن ذلك يستطيع المرء أن يرى الساحة، وفي الديوان ثلاث فتحات حائطية أو كوات بالحائط للغرض نفسه كما في القاعة. والأرضية من الحجر أيضاً، والديوان دائماً مجاور للقاعة ويمكن اعتباره وحدة كبيرة، وهو العنصر الرئيسي في المنزل، وللديوان درجة واحدة حيث يجلس الناس ويتجمعون.

وتستخدم جميع المخططات الدورة الرأسية نفسها، وهي مرتبة ومبنية بصورة تحقق الحد الأقصى من الخصوصية للمستخدمين. وفي معظم الحالات ثمة درج واحد إلا أنه قد يوجد درجان أحياناً، أحدهما درج رئيسي يستمر إلى الطوابق الأخرى، بينما يقف الدرج الثاني عند الطابق الأول.

وغالباً ما يكون الدرج مجاوراً لساحة الديوان. وهناك فتحات ونوافذ للتهوية والإضاءة تطل على الساحة. ويحاط الدرج عادة بجدران سميكة، ويقع دائماً في الجزء الأوسط من المنزل.

وتؤدي بعض عناصر البيت التقليدي في المدينة المنورة وظائف متعددة، فعلى سبيل المثال نجد أن المدخل (الدهليز) إلى جوار باب المدخل الرئيسي، وهو الفضاء الذي يفصل الجزءين الخاص والعام. وهو العنصر الذي يصل الجزء الأمامي للمنزل مع المؤخرة. وعرض المدخل غالباً ما يعادل نصف عرض غرفة. وبعد الدهليز صالة صغيرة هي الدكه، ويُصعد إليها بدرجة، وتواجه جانب الشارع. وبها مساحة للجلوس والنظر إلى الشارع من خلال المشربية.

ويصنع باب المدخل الرئيسي من الخشب، ويمتاز بزخارفه الثرية المختلفة من حيث تركيبها وأشكالها، وتبنى عتبة باب المدخل من الحجر غالباً، وفوق الباب فتحة صغيرة للتهوية. وعلى الطابق الأرضي بجوار الدهليز حجرة الجلوس (المجلس)، التي تعد وفق التقاليد مكتباً وحجرة استقبال للرجال.

وفي الطوابق العليا، حجرة كبيرة للمعيشة متعددة الأغراض، ولها دورة مياه (بيت الماء). وتستخدم هذه المساحة المعيشية غرفة للجلوس وللطعام وللنوم وللترويح.

والمؤخر وهو حجرة صغيرة في مؤخرة المنزل في الدور العلوي، ويستخدم غرفة للجلوس ولخزن الأشياء الشخصية مثل الملابس.

والمطبخ عادة فـي الطابق العلوي، وبه بعض الكوات في الحـائط تستخدم لحفظ الأطـباق. والخزانة، وهي غرفـة مخزن صغيرة بعد المطبخ عادة.

وحجـرة الاستقـبال (الصُـفه) في الأدوار العليا، ولها وظائف متعددة، منها الأكل والنوم.

وبيت الماء (دورة المياه) بالقرب من الدرج أو مع منطقة المـعيشة في الطابق العلوي. وتستخدم دورة المياه للاستحمام وغسيل الملابس ونحوهما.

ويلاحـظ في تـصميـمات المنـازل التقليدية أن جميع العناصر الرئيسية، مثل المجلس وغرفة المعيشة في المقدمة، وتتجه نحو الواجهة لتزويد هذه العناصر بالضوء والتهوية. وجميع الغرف التي في الطابق الأرضي وتواجه الشارع لها نوافذ مسطحة ذات قضـبان حديديـة عمودية لـتوفير الأمن. كمـا تغطى بـالرواشين جمـيع الغرف التي تـواجه الشارع وتطل عليه في الأدوار العليا.

أما عن مواد البناء الرئيسية فهي الحجر والطوب الطيني. ويتراوح سمك الحائط عند مستوى الأرض ما بين ٤٠ إلى ٥٠سم ويصبح الحائط أقل سمكاً عند الحواجز.

ويبنى الطابق الأرضي من الحجـر، وتبنى الطوابق العليا بطبقات من الحجر

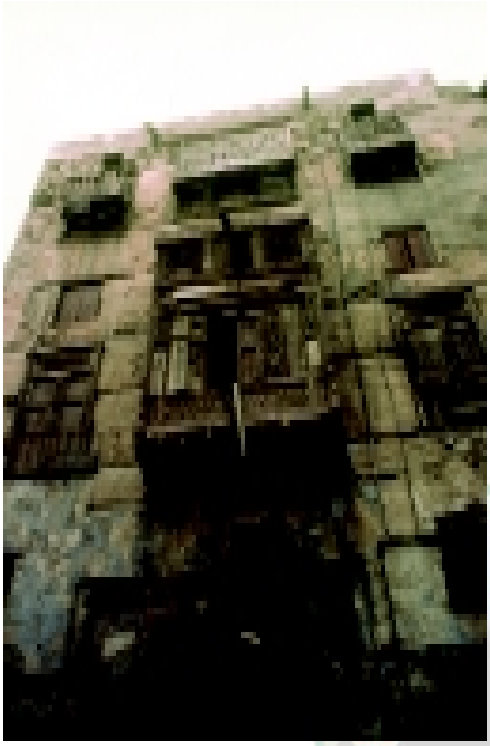

رواشين على طول المبنى مع نوافذ مسطحة بأحد المنازل بالمدينة المنورة

الطيني. وفي بعض الحالات يكون البيت كله مبنيـاً من الحجر، مما يعطي مظهراً شديـد الصلابة لـلمنـزل من الخارج. وبسبـب سمك أحجـار الحوائط، فإن الحجرات المبنية من الطين والحجر تصبح أكثر برودة في الأشـهر الحارة من تلك المبنية من مـواد أخرى. ومن أهم مزايا الحجر والطوب الطـيني رخص ثمنهما وتوافرهما وسهولة الحصول عليهما.

ويسقف المنزل بـأغصان الأشجار أو سيقانها وجذوع النخـيل، ويغطى بطبقة

سميكة من الطين من أجل العزل. وتستخدم جذوع النخيل للسقف ودعائمه.

وفي فصل الصيف يستخدم السكان الأسطح أماكن للنوم. ولتوفير الخصوصية فإن الأسطح في كل التصميمات مقسمة عادة بحوائط من الحجر، بحيث تتوافر الخصوصية لأكثر من أُسرة وأفرادها.

ويحاط السطح عادة بحواجز خفيفة، وعلى السطح في الجزء الأعلى من السلم مكان يستخدم عادة لخزن الأسرّة خلال الأيام المطيرة. ويستخدم السطح أيضاً لتجفيف الملابس.

وفي المدينة المنورة مجموعة من البيوت التقليدية منها منزل الشيخ دياب ناصر، ويعد هذا المنزل أحد نماذج البيوت التقليدية المهمة، وهو في المنطقة القديمة من المدينة، ولا يزال في حالة جيدة لقوة المواد التي استخدمت في إنشائه. وهو من ثلاثة طوابق، مستطيل الشكل، يضم الدور الأرضي منه مجلساً كبيراً وإيواناً وقاعة، بالإضافة إلى المطبخ، وبه بئر. ويحتوي الطابق الأول على غرف معيشة ونوم وصُفَّة وحمام ومطبخ ومؤخر. والطابق الثاني يشبه في ترتيب غرفه الطابق الأول. أما السطح فهو مقسم، وبه حمَّام، ومكان لتربية الدجاج. (وزارة الشؤون البلدية والقروية، التراث العمراني، المنطقة الغربية: ١٨٧).

ويعد بيت آل الحكيم، الذي يتكون من ثلاثة طوابق، نموذجاً للعمارة التقليدية بالمدينة المنورة، والبيت مربع الشكل. يضم الطابق الأرضي قاعة وإيواناً ومجلساً (حول إلى محل تجاري حالياً) بالإضافة إلى مطبخ وبئر. ويضم الطابق الأول أربع غرف بالإضافة إلى مخزن وحمام. والطابق الثاني يشبه الطابق الأول من حيث توزيع الغرف.